فريدريك بنولا

مصر والجغرافيا

ترجمة : أحمد زكي

تحقيق وتقديم : عاطف معتمد

دار البشير

مصر والجغرافيا

الطبعة الأولى
1443 هـ
2022 م

اسم الكتاب: مصر والجغرافيا
التأليف: د. فريدريك بنولا بك
موضوع الكتاب: أدب رحلات
عدد الصفحات: 184 صفحة
عدد الملازم: 11.5 ملازم
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2021 / 25663
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 918 - 4

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

مصر والجغرافيا

تأليف

د. فريدريك بنولا بك

السكرتير العام للجمعية الجغرافية الخديوية

ترجمة

أحمد زكي

مترجم مجلس النظّار

تحقيق وتقديم

عاطف معتمد

دار البشير للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

مقدمة المحقق

يحمل الكتاب الذي بين أيدينا عنوان «مصر والجغرافيا»، وهو عرضٌ لأبرز العناوين للأعمال ذات الصبغة الجغرافية من غزوات عسكرية ومشروعات مدنية، ارتبطت بالكشف الجغرافي ورسم الخرائط والرفع المساحي، وغيرها من تلك الأعمال والأنشطة، التي حدثت في ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر، منذ تولِّي محمد علي حكم البلاد في (١٨٠٥م) وحتى تولِّي الخديوي توفيق قبيل الاحتلال الإنجليزي في (١٨٨٢م).

ألَّف الكتاب في عام (١٨٨٩) باللغة الفرنسية الدكتور فردريك بُنولا بك، الأمين العام للجمعية الجغرافية الخديوية، وهو إيطالي الأصل، ولد عام (١٨٣٩)، وشارك في الحياة السياسية النابضة في بلاده قبل أن يضطر إلى الهجرة إلى مصر في عام (١٨٧٣) للعمل في خدمة الحكومة المصرية، حتى بلغ مكانة سكرتير (أمين عام) الجمعية الجغرافية الخديوية.

وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية أحمد زكي ـ مترجم مجلس الوزراء ـ بلغة عربية رائقة رصينة. وأحمد زكي أحد أعلام اللغة والثقافة في مصر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وقد ساهم في تأصيل الترجمة وفي دراسات الاستشراق.

ولا توجد أي ملاحظات على الترجمة، سوى في بعض صناعة بلاغية لم تأت في الأصل الفرنسي وأضيفت عند النقل للنصِّ العربي، حين جاء ذكرُ الحكّام والولاة من الأسرة العلوية، وهو أمر مفهوم ومتوقَّعٌ بمعايير ذلك الزمان.

وجاءت تلك الترجمة البهية الرصينة للكتاب بتكليف من مصطفى رياض باشا، رئيس مجلس الوزراء، في دلالةٍ على أهمية المحتوى لهذا العمل النادر.

ولد مصطفى رياض باشا في (١٨٣٦)، وتوفي في (١٩١١)، وشغل المنصب الذي يعادل اليوم رئيس الوزراء ثلاث مرات متفرقة، من (١٨٧٩) وحتى (١٨٩٤). وترجِّح بعض الروايات أن أصله شركسيٌّ. وهو علم بارز في السياسة المصرية في تلك الحقبة المفصلية من تاريخ مصر الحديث، وكانت له اهتمامات بالغة بعلم الجغرافيا وبالجمعية الجغرافية والبحث الجغرافي، ولاسيما في منابع النيل.

وأصل الكتاب الذي ألَّفه د. بُنولا استجابةٌ للدعوة التي وجَّهتها الجمعية الجغرافية الفرنسية للجمعيات الجغرافية في العالم، ومن بينها مصر، للاشتراك في أعمال المؤتمر الجغرافي الدولي في شهر أغسطس سنة (١٨٨٩)، حيث تتضمن المشاركة عرضَ تقرير عن الأعمال الجغرافية في ذلك الزمان.

ألَّف د. بُنولا التقرير، وذهب فألقاه في المؤتمر في باريس. وقد صدرت الترجمة العربية بعد ثلاث سنوات من صدور الأصل الفرنسي عام (١٨٩٢).

والمنهج الذي اتَّبعه المؤلف منهج تاريخي واضح الترتيب، يبدأ بتسلسل كل عصر من الأسرة العلوية عبر ستة حكّام، هم على التتالي: محمد علي، إبراهيم بن محمد علي، عباس، سعيد، إسماعيل، توفيق.

الإقليم المصري وحوض النيل

ورغم أن الكتاب يضمُّ موضوعات مهمّة عن شبه جزيرة العرب، وواحة سيوه، والوجه البحري، وبعض إشارات عن بلاد الشام إلا أن الموضوع الرئيس فيه هو حوض النيل.

ورغم أن النيل هو الهمُّ الأكبر للكتاب، إلا أنه في الحقيقة لم تكن مياه النيل تشغل بال أحد، بل كانت ثروات وموارد هذا الحوض هي هدف السيادة المصرية عليه(*).[1]

وإذا كان محمد علي قد أنفق العشرية الأولى من استتباب حكمه (١٨١١ ـ ١٨١٩) في إخضاع جزيرة العرب؛ فإنه سرعان ما بدأ في الاهتمام بمنابع النيل في منتصف عام (١٨٢٠) حين أرسل نجله إسماعيل إلى النيل الأزرق على رأس حملة عظيمة ضمت (٥٠٠٠) جندي مصري، بلغت أسوان ومنها إلى دنقله ثم عبرت كورتي وبربر وشندي، وصولاً إلى الحلفاية (شمال الخرطوم حاليًّا).

حين وصلت الحملة إلى التقاء النيلين الأزرق والأبيض قرَّر علماؤها أن المجرى الرئيس للنيل لا بدَّ أن يكون هو النيل الأبيض، وأن النيل الأزرق ليس سوى رافد إضافي لا يتجاوز الحبشة، أما النيل الأبيض فيتعمَّق عبر بلدان وشعوب كثيرة في عمق القارة.

(*) يبدو أنه حتى ذلك التاريخ كان هناك اعتقادٌ أن مياه النيل هي ابنة الروافد مجتمعة دون إعطاء أولوية لرافد على آخر. لكن في العصور الحديثة ومع حساب ميزانية مياه النيل منذ مطلع القرن العشرين عدَّل الجغرافيون المحدثون عبارة هيرودوت «مصر هبة النيل» لتصبح «مصر هبة النيل الأزرق» أخذًا في الاعتبار ما صار معروفًا من أن ما يقرب من (٨٥٪) من المياه الواصلة لمصر تأتي من النيل الأزرق، في الوقت الذي يسهم النيل الأبيض بالنسبة المحدودة الباقية.

غنيٌّ عن البيان أن مصر لا تسهم بقطرة ماء في ميزانية مياه النيل بحكم التحوُّل المناخي القاحل الذي تعيشه بيئتها منذ بضعة آلاف سنة. ويزيد الوضع استحواذًا أن تأثر مصر بالنيل الأزرق لا يتوقَّف فقط على كمية المياه، بل الأهم على ما تحمله هذه المياه من المواد الطينية التي خلقت تربة السهل الفيضي التي قامت عليها الزراعة.

كانت الجغرافيا العسكرية تهتم بالقبائل والمسارات المائية عبر الأقاليم أكثر من اهتمامها بحجم الميزانية المائية. ومن ثَم لم يكن النيل الأزرق يهمُّ مصر في خلال القرن التاسع عشر كما هو اليوم، فكلُّ أهميته كانت في مشروعٍ طموح للبحث عن الذهب، خاصة في تخوم مناطق سنار، وسنجة، وفازوغلي.

ثم كرَّر محمد علي في العام الثاني (١٨٢١) حملات النيل الأزرق، فأرسل ابنه إبراهيم باشا الذي كان قد حقَّق شهرة واسعة في حملة جزيرة العرب.

قسم إبراهيم باشا جيشه إلى فرقتين: فرقة برئاسة أخيه إسماعيل تخترق النهر الأزرق رغبة في الوصول إلى عاصمة المملكة الشهيرة فازوغلي، والفرقة الثانية تحت قيادة إبراهيم تخترق النيل الأبيض رغبة في الوصول إلى بلاد الدنكا.

كردفان ودارفور

بشكل موازٍ لحملة النيل الأزرق كانت الجهود المصرية تتَّجه إلى غرب السودان، اتِّفاقًا مع الاعتقاد آنذاك بأن المنابع الغربية لنهر النيل إلى الجنوب من كردفان تجعله متصلًا بنهر النيجر، واستعدَّت حملة إبراهيم باشا لذلك. وفي الوقت نفسه كانت الحملة تستقطب جنودًا من كردفان على أمل الزحف إن لزم الأمر إلى ما وراء بورنو Bornu (تشاد حاليًّا).

كانت طموحات حملة النيل بالغة، إذ كانت الخطَّة أن تستكمل مسيرتها من النيل الأبيض إلى دارفور، ثم بورنو ومنها تعود شمالًا إلى طرابلس الغرب (في ليبيا حاليًّا) ثم تقفل راجعة إلى مصر. وهو ما يعني أن تكون الحملة ذات أهداف علمية ـ استكشافية ـ جيوسياسية في شمال شرق القارة الإفريقية، منطلقة من فكرة قديمة عرفها المؤرخون والجغرافيون عبر التاريخ، وهي التكامل الجغرافي لحوض النيل.

لم تكن الحملة لتكتفي بنهر النيل في رافديه الشهيرين الأزرق والأبيض(*)[1] فحسب، بل امتدت أيضًا إلى روافد أقل شهرة مثل عطبرة، كما امتدت إلى الأنهار التي لا تصبُّ في حوض النيل بل تنتهي إلى البحر الأحمر في شرق السودان، مثل خور القاش والبلاد الممتدة من كسلا وحتى سواكن، المعروفة باسم «التاكا Taka»[1] التي صارت جزءًا من سيادة مصر في عام (١٨٤٠).[2]

محمد علي باشا في منابع النيل الأزرق

في سبيل اكتشاف ثروات النيل أسس المصريون في (١٨٢٣) الخرطومَ لتكون عاصمة للسودان عند التقاء النيلين الأزرق والأبيض، بعد أن كانت مجموعة أكواخ صغيرة تاريخية قرب جبانة.

كان الهدف من تأسيس الخرطوم أن تكون نقطة ارتكاز للانطلاق إلى النيل الأزرق، خاصة في سنار وفازوغلي، بعد أن أضرَّت المواقع العسكرية في سنار بصحة العساكر ففشت فيهم الدوسنتاريا وفتكت بهم.

في نهاية عام (١٨٣٩) ومطلع عام (١٨٤٠) سافر محمد علي بنفسه إلى السودان للإشراف على استخراج الذهب، فوصل دنقله ومنها توجَّه إلى الخرطوم، ونادى بإلغاء الاسترقاق، ثم وصل إلى فازوغلي وهناك أقام مركزًا مصريًّا ليكون بداية

(*) إذا عدنا لأصل الأسماء، فإن النيل الأزرق هو وصف للمياه الداكنة العكرة التي تحمل رواسب ثقيلة غامقة اللون من الصخور البركانية في هضبة الحبشة، وعادة ما يطلق الناس على الشيء الأسود صفة الأزرق لتشابه دكانة اللون الثقيل. أما النيل الأبيض الذي يمرُّ في السودان فيوصف بذلك لأنه يحمل المياه خالية من أية رواسب بعد أن فقدها في مستنقعات جنوب السودان التي حجزت المستعمرات النباتية فيها كل الرواسب وأطلقت النهر خاويًا من المفتتات، فبدت مياهه صافية بيضاء لا طمي فيها.

(١) التاكا: اسم لمنطقة جبلية فيما بين شرق السودان وإريتريا (المحقق).

لاستكشاف المنطقة وتمويل الدولة بالمعادن سيما الذهب. واتَّخذ من المنطقة موضعًا لتأسيس مدينة جديدة حملت اسم «مُحمدُ بولس Mohamed apolis» أي «مدينة محمد علي».

فشل المنقِّبون في العثور على الذهب، وطار عقل محمد علي في مقرِّ مدينته الوليدة، فصبَّ جام غضبه على الخبراء الأوروبيين المرافقين له وعلى المصريين من حوله بالطبع، وأنزل على الجميع لعناته واضطر للعودة إلى القاهرة في حالة سيئة في رحلة طويلة شاقّة في سنوات عمره الأخيرة، حيث كان قد بلغ من العمر آنذاك (٧١) عامًا. وسرعان ما نُسي اسم المدينة الوليدة ولم يعد يحتلُّ مكانًا على الخريطة.

ورغم عودة محمد علي، إلا أن الحملة واصلت فبلغت في الجنوب حدودًا جديدة شارفت في (١٨٤١) على منابع نهر السوباط على مقربة من دائرة العرض (٥) شمالًا. وطبعًا رسمت خرائط مهمّة ستعتمد عليها الكشوف الأوروبية لاحقًا.

طموحات مصرية في المديرية الاستوائية

بعد وفاة محمد علي وابنه إبراهيم باشا لم يُبدِ الخديوي عباس خلال المدة القصيرة التي حكم فيها (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) اهتمامًا بنهر النيل. لكن في المقابل شهدت المدة التالية التي حكم فيها الخديوي سعيد (١٨٥٤) إلى سنة (١٨٦٣) عودة الاهتمام بالسودان وحوض النيل، فسعى إلى تقليد محمد علي فسافر بنفسه إلى الخرطوم في (١٨٥٧) وأقام مركزًا على نهر السوباط في أقصى الجنوب للإشراف على منع تجارة الرقيق.

كما سمح للمستكشفين الألمان بالسفر إلى شرق السودان، وإلى كردفان ومنها جنوبًا إلى بحر الغزال ومنابع نهر النيل الاستوائية انطلاقًا من جنوب السودان،

التي توِّجت بالرحلة المشتركة لكلٍّ من جون سبيك John Speke وجيمس جرانت James Grant اللذين سافرا من زنجبار Zanzibar في (٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢) فوصلت رحلتهما إلى شلالات «ريبون Ripon» على نهر النيل، وهو يخرج من بحيرة فكتوريا.

يمكن القول إن عصر إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) هو عصر الاهتمام بحوض النيل وتخومه الجيوسياسية بالمعنى الكامل للكلمة. فبعد أن عقد إسماعيل تفاهمات مع الدولة العثمانية في (١٨٧٠) على بسط سيادة مصر على كل من مصوع في إريتريا وإقليم طوكر Tokar وسواكن في شرق السودان كلَّف في الوقت ذاته السِّير صمويل بيكر Samuel Baker بحملة عظيمة لمنابع النيل الاستوائية.

أنفقت الخزينة المصرية على حملة صمويل بيكر عشرين مليونًا من الفرنكات، وكان ابتداؤها في (٨ فبراير سنة ١٨٧٠) وانتهاؤها في شهر أغسطس سنة (١٨٧٤).

وعند ملتقى نهر السوباط أسَّس بيكر محطة لمنع تجارة الرقيق دعاها بـ«التوفيقية»، نسبة إلى أكبر أبناء الخديوي إسماعيل، الذي سيصبح خديوي مصر لاحقًا في (١٨٧٩).

سافر بيكر حتى وصل في (٢١ إبريل سنة ١٨٧١) إلى غندكرو Gondokro وفي (٢٦ مايو) أعلن رسميًّا بأن البلاد المحيطة بها قد دخلت في حوزة مصر، وأعاد تسمية غندكرو لتصبح الإسماعيلية تيمنًا باسم الخديوي.

ولأن ما قام به بيكر يعدُّ إنجازًا ملموسًا لمصر، لكنه لا يزيد عن السيادة الظاهرية الاسمية في المنطقة الاستوائية؛ عزم الخديوي إسماعيل على ترجمة هذه السيادة على الأرض، فبدأت مرحلة جديدة من الاهتمام المصري بمنابع النيل الاستوائية، لكن الاحتلال الإنجليزي لمصر في (١٨٨٢) إثر الثورة العرابية

أطلق يد إنجلترا في السودان ومنابع النيل، وضاعت كل جهود مصر خلال ثلاثة أرباع القرن الماضي على نحو ما يذهب مؤلِّف الكتاب في وضع تهمة تلك الخسارة في عنق الثورة العرابية.

كتيبة من العلماء

لم يكن الاهتمام المصري بمنابع النيل يحقِّق غايته إلا بالاعتماد على ثلة متنوعة من خبراء الأرض من جغرافيين وجيولوجيين وعلماء نبات ومسح أرضي ورصد فلكي.

الحقيقة أنه منذ صعود محمد علي إلى سدّة الحكم في مصر في مطلع القرن التاسع عشر تضاعفت حركة الكشوف الجغرافية المصرية والفتوحات العسكرية. وقد اعتمد هذا الزخم الجغرافي والكشفي والعسكري على نوعين من العقول المدبرة:

النوع الأول: مثَّلته الرموزُ البارزة في الأسرة العلوية ممَّن قادوا الحملات بأنفسهم، وشملت في النصف الأول من القرن التاسع عشر محمد علي باشا بنفسه، فضلًا عن أبنائه وفي مقدمتهم طوسون وإبراهيم وإسماعيل إلى جانب «محمد بك الدفتردار» صهر محمد علي. كما اعتمدت مصر في النصف الثاني من ذلك القرن على ضباط مصريين، كان من المفترض أن تخلد أعمالهم وتلمع أسماؤهم لو كانت طريقة التوثيق الوطني والأرشفة تتم بآلية التوثيق الأجنبي نفسها. لكن من أسفٍ أن هذا النوع من الرواد المصريين لا يرد ذكره إلا في حالات استثنائية.

وكان **النوع الثاني** من الخبراء الأجانب الذين تولَّوا الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ولاحقًا حملة فريزر (١٨٠٧) التي كانت بدورها جزءًا

من الحرب التركية الإنجليزية (١٨٠٧ ـ ١٨٠٩) قد فتحت أعين محمد علي وحلفائه على هؤلاء الخبراء من عسكريين ومسّاحين وبحّارة ومستكشفين وعلماء آثار، وعرف هو وخلفاؤه من بعده أهمية الاستعانة بهم في ظل ضعف التأهيل العلمي للخبرات المصرية في أعقاب الحكم المملوكي. وكان لهؤلاء الخبراء الأجانب الأغلبية العظمى من الشهرة وطباعة الأعمال ونشرها في مصر وخارجها، وكانت تتكرر أسماؤهم أضعاف ما تتكرر الأسماء المصرية.

ولدينا إضافة إلى النوعين السابقَين حالات نادرة كنا نجد فيها مهام كشفية وحملات مختلطة ضمَّت مزيجًا من الرواد المصريين والأجانب، ولعل هذا النوع كان أكثر الأنواع فائدة لتبادل الخبرات رغم ندرته.

وبوسعنا إحصاء ما يقرب من مئة اسم من أولئك الرحّالة والمستكشفين والجغرافيين وخبراء الري ممَّن التفُّوا حول محمد علي باشا وخلفائه من بعده. وجدير بالذكر أن هؤلاء ليسوا بالضرورة كما يشاع جاؤوا من أصل فرنسي تماشيًا مع التحالف التركي الفرنسي، بل شمل ذلك الإيطاليين والإنجليز والألمان، بل وبعضًا من الرّوس، وبعضًا من الأمريكيين.

سنرى في هذا الكتاب أن محمد علي استعان بعديد من الخبراء من مختلف الجنسيات، أبرزهم:

من فرنسا: لينان دو بلفون Linant de Bellefonds، سيف Sève (سليمان باشا الفرنسي)، فردريك كايو Caillaud، إرنست نجل لينان دو بلفون Ernest Bellefonds، جومار Jomard، شديفو Chedufeau، دارنو D'arnaud، لوقيڤر Le Fevre، ماري Mari، براكس Prax، لامبير Lambert، شامبليون Champollion.

ومن إيطاليا: بلزوني Belzony، كازامورا Casamural، فردياني Frediani، ريتشي Ricci، فورني Forni، بروكي Brocchi، دروفتي Drovetti، سيجاتو Srgato، روزوليني Rosellini.

ومن النمساويين: برياني Boreani، بروكش ـ أوستن Prokesh-Osten.

ومن الإنجليز: واجرن Waghorn، بريتن Burton.

ومن الألمان: ربل Ruppel.

ومن الروس: كواليسكي Kowalesky.

أكثر من (٤٥٪) من هذا العدد كان يقوم برحلات استكشافية في الجغرافيا الإقليمية والأنثروبولوجيا ووصف الأقاليم chorography، وانخرط نحو (٣٠٪) منهم في أعمال التعدين، وجاءت النسبة الباقية للمهتمين بالآثار وخبراء الفلك والمساحة والري وخبراء التدريب العسكري.

الأهداف المصرية

تنوَّعت أوجه الاستعانة بالخبراء الأجانب لتحقيق خمسة أهداف رئيسة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهي:

١ ـ الجغرافيا العسكرية تمهيدًا للحملات الساعية إلى بسط السيطرة والسيادة، وامتدَّ ذلك إلى كلٍّ من شبه جزيرة العرب، وبلاد الشام، والصحراء الليبية، والسودان. وكان الخبراء هنا من ضباط عسكريين وأطباء لأمراض المناطق المتوطنة ومدربين ميدانيين.

٢ ـ استكشافات المعادن والخامات في الأراضي المصرية، وخاصة خامات الكبريت اللازمة لاختراع البارود من صحراء مصر الشرقية، فضلًا عن خامات الذهب التي كانت الميزانية المصرية في حاجة ماسّة إليها، وهنا

كانت الحملات تتجه إلى السودان ومشارف الحبشة، وكانت تنقب أيضًا في سيناء قبل أن يبلغ اليأس مداه من إمكانية العثور على الذهب في إقليم الطور وما حوله.

٣ ـ تنشيط التجارة بين مصر والعمق الإفريقي لضمان الحصول على سلع ومنتجات لا تتوفر في البيئة المصرية.

٤ ـ الحصول على رقيق للتجنيد الإجباري في الجيش من الأقاليم البعيدة، لا سيما الرجال الأشداء من حوض النيل، وكان ذلك جليًّا في عهد محمد علي قبل أن تتحول مصر في عهد خلفائه إلى محاربة تجارة الرقيق وإيقاف التجارة بالبشر بضغوط أوروبية.

٥ ـ تطهير مجرى النيل والقنوات الآخذة منه لضمان تدفُّق حركة الملاحة، ومراقبة الأوضاع الأمنية والحيلولة دون دخول منافسين أوروبيين للنفوذ المصري، وفي مقدمتهم إنجلترا ولاحقًا فرنسا وإيطاليا.

الخبراء... دوافع ومآلات

يكشف تحليل السياق التاريخي عن وجود ثلاثة دوافع رئيسة ساقت هؤلاء العلماء إلى العمل في مصر:

١ ـ الشغف والاستكشاف والبحث، وتحقيق إنجاز علمي للفن أو المهنة التي يحترفها ذلك الخبير أو المستكشف المغامر.

٢ ـ آخرون كانوا جواسيس (وكل جاسوس في الخارج بطل في وطنه!) قدَّموا نتائج هذه الأعمال والرحلات والاستكشافات لدولهم في الوقت نفسه الذي كانوا يقدِّمونه لخدمة الحاكم في مصر. وفي بعض الحالات ـ كما في الاستكشاف العلمي والبحث الجغرافي والأنثروبولوجي ورسم الخرائط ـ

لم يكن الحكّام في مصر يتلقّون هذه النتائج في صورتها الأولى إلا بعد أن يعود العالم إلى وطنه ويكتب وينتج أعمالًا علمية مطبوعة، أو يلقيها في محاضرات في الجمعيات الجغرافية العالمية، ثم تصل نسختها لاحقًا إلى مصر فيستفيد منها رجال الإدارة والحكم، وبدهيٌّ أنها لم تكن تصل لعوام الشعب المصري الذي لم يكن يعرف لغات أجنبية وكانت نسبة الأمية بلغته الأم مرتفعة للغاية.

٣ ـ وبعضهم كان يخدم المجد الشخصي والحياة الفاخرة، ويعمل على إشباع رغبات الثراء. وكان هؤلاء غالبًا ممَّن عاشوا على مقربة من بلاط السلطة ودائرة المستشارين، وانخرطوا في الاستيلاء على الآثار وتهريبها للخارج تحت بصر محمد علي نفسه.

ورغم كل ما جمعه العلماء من معلومات وأدلّة أثرية ورسموا من خرائط، إلا أنهم لم يكونوا في أغلب الأحوال محل عداء أو كراهية مع الأهالي والسكان المحليين. لقد كانت علاقات الكراهية والصدام والحرب تتمُّ دومًا بين الجيش الغازي وهؤلاء السكان، وكان العلماء يعملون في أغلب الأحوال على حماية الجيش، دون الاشتباك بأي حال من الأحوال مع الأهالي والسكان المحليين.

ولا يعني هذا أن مصير هؤلاء العلماء كان آمنًا يقتنصون فيه المال والشهرة دومًا، إذ انتهت بهم الأقدار نهايات مأساوية، فبعضهم مسَّه الجنون، مثل فرديانى Frediani، وبعضهم مات مقتولًا على أيدي الأهالي مثل إرنست لينان Ernest Bellefonds نجل لينان دو بلفون Linant de Bellefonds، أو في أثناء جمعهم لبيانات عن الرحلة مثل باشو Pacho، وبعضهم ضربته الأمراض والعلل مثل مهندس الملاحة كازامورا Casamurat الذي أصابته الحمى في النيل الأزرق وحين عاد طلبًا للشفاء لم يكد يصل إلى الخرطوم إلا وقد وافته المنية في سبتمبر

(١٨٢٦). وكان أقلهم ضررًا من يتلقى لعنات وتوبيخ محمد علي إذا فشل في أداء مهمَّته، ويحرم من المزايا والعطايا، ويطرد من الخدمة.

وليس من المستبعد أنه كانت هناك حالة من شبه الاحتكار للمعلومات قام بها هؤلاء العلماء والخبراء، كما كان هناك حالات مثبتة تاريخيًّا كان يتمُّ فيها السخرية من أعمال الجانب المصري والتقليل من شأنها. ولعلَّنا نضرب مثلًا شهيرًا لما حدث بين لينان دو بلفون الفرنسي ومحمد بك الدفتردار صهر محمد علي حين رفض الدفتردار أن يرافقه الأجانب في الحملة المصرية الخالصة على كردفان وعاد ومعه بيانات عن السكان وعاداتهم وتقاليدهم وأهم محاصيلهم وسبل عقد تجارة معهم، وفوق كل ذلك رسم خرائط للرحلة، وعرضها محمد علي على الخبراء الأوروبيين فسخروا منها، وكتب لينان دو بلفون يقول عنها: «إنها خرائط قليلة القيمة لا تضمُّ سوى الطرق والمسارات والمسالك، شيء يذكِّرنا بخرائط العهد الروماني قبل مئات السنين».

ما من شك أنه كان لدى الخبراء الأجانب تفوُّق ملحوظ في علم الجغرافيا غير قابل للمقارنة مع نظرائهم المصريين، ولدينا مثلًا رفاعة الطهطاوي الذي اعتنى بالجغرافيا في حدود الترجمة، ولعل أبرز ما ترجم للعربية كتاب الجغرافي الفرنسي ملطبرون Conrad Malte Brun. ولا بد من القول: إن ترجمة رفاعة تكشف في الحقيقة عن تواضع مستوى المعرفة الجغرافية لدى رفاعة بك بمعايير ذلك الزمان، وربما كان ذلك دليلًا على ضعف تدريس الجغرافيا في مصر، الأمر الذي جعل محمد علي على إثره يأخذ قرارًا في عام (١٨٣٢) بأن تصبح الجغرافيا أحد موضوعات التدريس الرئيسة في مدرسة الألسن التي كان يرأسها الطهطاوي نفسه.

وفي الختام يجب النظر إلى حصاد المدة التي عمل فيها الخبراء الأجانب في القرن التاسع عشر باعتبارها جلبت فوائد كثيرة على الجغرافيا والاستكشاف في مصر والسودان، وقدَّمت فرصًا لم تكن متاحة لدى المصريين في تلك الحقبة من الزمن، سواء من رسم خرائط أو كتابة تقارير أو مؤلفات علمية ساهمت جميعًا في نمو الدولة المصرية وتوسع أرجائها وتخومها.

ولكن من ناحية أخرى، لا يمكن التغافل عن أنه منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وقع الاحتلال الإنجليزي لمصر والسودان، والفرنسي في وسط القارة وفي القرن الإفريقي، والإيطالي في الحبشة وفي ليبيا، وهو ما لم يكن ليتحقَّق إلا استغلالًا لثمار ونتائج حملات العقود السابقة التي كتب فيها الرحالة والخبراء أعمالَهم ورسموا خرائطهم في ظل رعاية وحماية محمد علي وخلفائه. بل إن هذه الجهود كلَّها تمَّت بتمويل مصري أرهقت الخزانة المصرية، وصبَّت في النهاية في مصلحة الاستعمار الأوروبي، الذي احتلَّ القارة الإفريقية وسيطر على منابع النيل وقسم المنطقة.

ما الذي يقدِّمه هذا التحقيق؟

عملتُ في التحقيق الحالي على ما يلي:

- مقابلة النص العربي بالنص الفرنسي للتأكد من الأسماء والمواقع، وهو ما كان مفيدًا في تصويب بعض أخطاء مطبعية جاءت في النسخة المترجمة. وقد أشرت إلى ذلك في هوامش تحمل في نهايتها كلمة (المحقق).
- وضع هوامش توضيحية بعد مقابلة الترجمة بالأصل الفرنسي ليتنبّه القارئ لأمر المبالغات البلاغية التي لجأ إليها المترجم في وصفه خصال وشمائل الأسرة العلوية، وهو مديح عربي بليغ لم يكن له أصلٌ في النسخة الفرنسية. وقد أشرت أيضًا إلى ذلك في نهاية كل هامش بكلمة (المحقق).

- إضافة معلومات للقارئ عن بعض الشخصيات التي ورد ذكرها في النص ولم تلق حظًّا من التعريف.
- من أسف أن هذا الكتاب (الجغرافي) جاء بدون خرائط، مما حثَّني إلى أن أضيف إليه عددًا من الخرائط التوضيحية تساعد القارئ على استيعاب أفضل للنص، ووضعت أسفل كل خريطة المصدر الذي أخذت عنه. وقد اعتمدت في هذه الخرائط على الأعمال التي صدرت في وقت قريب من تاريخ صدور ذلك الكتاب وبالتحديد الأعمال التي قدَّمها المؤرخ عبد الرحمن الرافعي عن الحركة القومية في مصر نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وسيجد القارئ هذه الخرائط في ملحق مستقل في نهاية هذا الكتاب.

وآمل أن أكون قد أدَّيت جانبًا من الواجب تجاه التراث الجغرافي المصري، خاصة أن هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها تحقيق هذا الكتاب وإعادة إصداره على النحو الذي هو عليه الآن.

ولا يفوتني أن أتقدَّم بالشكر لكلٍّ من ساعدني في إعداد هذا التحقيق. وفي المقدمة صاحب الفضل، الدكتور أسامة حميد الجغرافي الموسوعي، الذي أمدَّني بمراجع نادرة فضلًا عن النسخة الأصلية للكتاب بلغته الفرنسية، وكنت دومًا أعود إليه للاستشارة والاستفادة(*).

عاطف معتمد عبد الحميد
أستاذ الجغرافيا بجامعة القاهرة
القاهرة ـ أكتوبر ٢٠٢٠

(١)(*) لا يفوتني أن أتقدم بالشكر لمن ساعد في نسخ وتجهيز الكتاب للطباعة، خاصة كل من: د. ياسر معوض، مريم فايز، أماني فايز، إسلام علواني، محمود ربيع، ومحمد عثمان.

كتاب

مصر والجغرافيا

وهو خلاصة تاريخية عن الأعمال الجغرافية التي أنجزها العائلةُ المحمدية العلوية بالديار المصرية

ألّفه باللغة الفرنسية

الدكتور فريدريك بنولا بك

السكرتير العام للجمعية الجغرافية الخديوية

وترجمه

إلى اللغة الشريفة العربية

أحمد زكي

مترجم مجلس النظّار

ومترجم شرف وأحد أعضاء الجمعية الجغرافية الخديوية

وأستاذ اللغة العربية بالإرسالية العلمية بمصر

ومدرس الترجمة في المدرسة الخديوية

وأحد أعضاء الوفد العلمي المصري النائب عن الحكومة الخديوية

في المؤتمر التاسع لعلماء المشرقيات

المنعقد في لوندره في شهر سبتمبر سنة ١٨٩٢

تُرجمت

هذه النسخة من اللغة الفرنسية

وطبعت بأمر وعناية صاحب الدولة والإقبال

الوزير الخطير والمشير الجليل

مصطفى رياض باشا

حفظه الله آمين

مقدمة المترجِم

الحمد لله ربِّ المشرقَين وربِّ المغربَين، والصلاة والسلام على مَن اقترب منه فكان كقاب قوسَين، وعلى آله وصحابته الأخيار، سادات القبائل والأمصار.

وبعد؛

فإن حضرة الوزير الخطير، والأمير الشهير، رجلَ المعارف، وربَّ العوارف، الذي هو فوق كلِّ مدح وثناء لِما لَه من الأيادي البيضاء والمآثر الغرّاء؛ نظر في الأصل الفرنسي لهذا الكتاب الجليل، فرأى فيه من الفوائد والمزايا ما يجعله حريًّا بأن يندرج في سلك الكتب العربية، فأمرني ـ حفظه الله ـ بنقله إلى لغتنا الشريفة، فأجبتُ أمره الكريم.

ولما عرضتُ على دولته ترجمتي هذه حازت لديه تمام القبول، حتى أنه تفضَّل بطبعها على نفقته الخاصة؛ إجلاءً لشأنها وإعلامًا بمقامها. وهاهي تختال في حلل البهاء، وكلُّها ألسنةٌ تنطق بشكر دولته؛ لأنه السببُ في وجودها ترجمةً ونشرًا. حفظه الله ملجأً للعلم وخادِميه. آمين.

فاتحة المؤلف

لقد دعت الجمعية الجغرافية بباريس نظائرَها في جميع العالم للاشتراك في أعمال مؤتمر الجغرافيا الدولي، الذي انعقد بعاصمة فرنسا في شهر أغسطس سنة (١٨٨٩)، وأعربت لهنَّ عن رغبتها في أن تقدِّم كلُّ واحدة منهن تقريرًا موجزًا ببيان الأعمال الجغرافية التي تمَّت منذ أول هذا القرن في الأقطار اللاتي بها مراكزهنَّ.

فلمّا بلغتنا هذه الدعوةُ ندبتُ نفسي وعرضت على اللجنة المركزية للجمعية الجغرافية الخديوية أن أقوم بتلبية الطلب وإجابة النداء، فتكرَّمت بقبول الالتماس، وعُنيت حينئذ بجمع هذا الكتاب المختصر، ثم تشرَّفت بتقديمه إلى المؤتمر.

ولذلك جاء هذا التصنيف خلاصة تنبئ عمّا كان لمصر من اليد الطّولى في ترقية الفنون الجغرافية في مدة المائة التي نحن فيها الآن.

وقد عزمتُ بحوله تعالى أن أتوسَّع بعدُ في هذا الموضوع المفيد، الذي به فخار البلاد وإعلاء شأنها، ووقفت نفسي على شكر مَن يتفضَّل بإرشادي بالأنباء الصادقة والروايات الصحيحة التي أستعين بها على إصلاح الخطأ وتقويم المعوج وإكمال الناقص فيه الآن.

واقتصرت في هذا المختصر على بيان الأعمال الجغرافية التي قامت بها الحكومة المصرية بإيعازٍ من ولاة أمورها ومالكي مقاليدها، وأهملت ذكر الإرساليات والريادات والاستكشافات التي باشرها الأفراد أو تولَّتها حكومات أخرى.

ويرى القارئ بمجرد اطِّلاعه على الأسماء التي سردتُها في كتابي هذا أن ولاة الأمر في أرض مصر كانوا في حاجة دائمًا إلى الاسترشاد بنبراس الأجانب والركون إليهم، ولا شكّ في أن هذا أمرٌ يدعو إلى الاستغراب في بادئ النظر، إذ يراه الإنسان مغايرًا لمقتضيات أحوال العمران، منافيًا للقياس. ولكن عند إمعان النظر وإعمال الفكر يرى أنه لم يكن في الإمكان أبدع مما كان؛ فإن حالة الزمان هي التي قضت بذلك.

والضرورات تبيح المحظورات، وذلك أن المغفور له محمد علي باشا الأكبر استوى على أريكة البلاد المصرية وقد أوشكت أن تسقط في مهواة التوحُّش والهمجية بسبب الفتن الداخلية وتوالي القتال فيها على مدى السنين الطوال، حيث إن العائلة المحمدية العلوية لما قبضت على أعنة الأحكام في هذه الديار رأت المعارف دارسة والصنائع متقهقرة والانحطاط بالغًا حدّه، وكل ذلك أوجب عليها الجدُّ في التجديد والأخذ في كل عمل مفيد، فأفرغت ما في وسعها وبذلت قصارى جهدها لتدريج المصريين في سلَّم التقدُّم والارتقاء، فكانوا حينئذ متفرِّغين للعمل عاكفين على الاجتهاد، وما كانوا إذ ذاك وصلوا إلى درجة تؤهِّلهم لمباشرة مثل هذه الأعمال الخطيرة الوقع الكثيرة النفع، أو تمكِّنهم من القيام بأعباء الاستكشافات العلمية.

على أنه لم يتمّ إنشاء قسم الجغرافيا العملي في أركان حرب الجيش المصري إلا في عام (١٨٧٠) على يد الطيِّب الذكر الجنرال ستون[1] الذي كان رئيسًا لجمعيَّتنا.

---

(١) شغل تشارلز ستون Charles Pomeroy Stone منصب رئيس الجمعية الجغرافية الخديوية خلفًا للمستكشف الألماني الأصل جيورج شفاينفورت. جاءت خبرات ستون من المساحة العسكرية في الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) وقبلها في الحرب الأمريكية ـ المكسيكية بين عامي (١٨٤٦ و١٨٤٨). عمل في قيادة أركان الجيش المصري ووصل لرتبة جنرال وحصل على لقب باشا (المحقق).

وقد نال الضباط المصريون من النتائج في هذا المضمار ما حقَّق الأماني والآمال، وبثَّ فيهم وفي إخوانهم روح النشاط والاجتهاد في إحراز الفخار، فأخذوا في الدأب والكدِّ، ولكن أبت الأيام إلا إظهار ما تكنُّه من الشر والفساد، فجاءت بحوادث أقفلت أمامهم الأبواب وأوقفت حركة تقدُّمهم المستطاب[1].

وقد هذَّبتُ هذا الكتاب بعد أن عرضته على المؤتمر، ونقَّحت عباراته وأصلحت إشاراته على أسلوب أجمل وأظهر، بحيث أصبح الآن أهلًا لأن يتمثل في صورة الطبع، ويتجلى بصورة يقبلها الطّبع، وأضفت إليه من الحواشي والملحقات ما يفيد الباحثين ويهمُّ المدققين، الذين تتوجَّه رغبتهم إلى الوقوف على زيادة الشرح والتفصيل عمّا ترتب على هذا النشاط العجيب والتقدُّم الغريب، الذي أصاب علم الجغرافيا منه حينئذ أوفر حظٍّ وأكمل نصيب.

تحريرًا بالقاهرة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٩

الإمضاء

الدكتور

فريدريك بنولا بك

(١) الأرجح أن المؤلف هنا يلمِّح إلى أحداث الثورة العرابية التي اعتبرت في عهد الخديوي توفيق خروجًا على مصلحة البلاد وعصيانًا. ووصفت بأنها سبب في الخراب وضياع الاستقلال ومدعاة للاحتلال الأجنبي (المحقق).

حكم محمد علي باشا الأكبر
من سنة (١٨٠٥) إلى سنة (١٨٤٨)
غزوات بلاد العرب

كانت منازلة الوهابيين في سنة (١٨١١) ميلادية أول فرصة ظفر بها ذلك البطل الباسل، والشهم الكامل، ربُّ المآثر والمفاخر، وخلاصة الأوائل والأواخر، رأسُ العائلة الفخيمة الخديوية، وممدِّن الديار المصرية[١]، فاستخدمها في خدمة العلوم الجغرافية، واغتنمها لتوسيع نطاقها وتوفير موادها.

وقبل ذلك لم يكن العلماء يعرفون إلا شيئًا يسيرًا وأخبارًا غير مستوفاة عن بلاد العرب، ولا سيما بلاد نجد؛ فإنه لم يتح لأحد من سائحي الإفرنج أن يمعن في داخل هذه البقاع ويجوب ما فيها من الأصقاع. وأما الأخبار التي رواها نيبهر[٢] في أثناء سياحته في تلك الأقطار من سنة (١٧٦١) إلى سنة (١٧٦٦) فإنما التقطها من أفواه بعض الأعراب المتوطِّنين على السواحل والشطوط.

---

(١) خلع المترجم هذه الصفات والمآثر على محمد علي رغم أنه لم يرد في النص الفرنسي أي شيء منها سوى القول بأن محمد علي «مؤسس أسرة جديدة في حكم مصر» (المحقق).

(٢) كارستين نيبهر Carsten Niebhur (١٧٣٣ ـ ١٨١٥)، عالم رياضيات وكارتوجرافي ومستكشف ألماني، التحق بخدمة التاج الدنماركي، وشارك في بعثة الدنمارك الملكية إلى بلاد العرب ما بين عامي ١٧٦١ ـ ١٧٦٦، التي قامت بالعديد من الدراسات النباتية والأثرية والجغرافية والطبيعية في الوجه البحري وشبه جزيرة سيناء قبل أن تتجه إلى شبه جزيرة العرب لتكمل أبحاثها (المحقق).

ولما أمر ذلك الرجل المقدام بإرسال التجريدة الحربية الأولى تحت قيادة طوسون باشا لمحاربة أولئك المنشقِّين وإلزامهم بالرجوع إلى الصراط المستقيم؛ رسم بأن ترسم خريطة مختصرة[١] ببيان مواقع البلدان ليهتدي القائد بها في سيره، ويسوق عساكره، ويجري حركاته بموجبها، فتمَّ ذلك بناء على أنباء الشيخ عبدالرحمن الأوقية[٢].

وقد طال زمان هذه الغزوة واحتلت الأجناد تلك البلاد، وعني جماعة من الضباط المصريين والإفرنج في أثناء الاحتلال برسم الطرق والدروب التي سلكها طوسون باشا وإبراهيم باشا ومحمد علي باشا مستعينين على ذلك بالبوصلة، وعيَّنوا المسافات وقدَّروها بالسير، وبيَّنوا مواقع الجبال ومجاري المياه من غدران وأنهار، وذكروا أمورًا كثيرة مما يتعلق بعلم تقويم البلدان، وحينئذ تيسَّر للعلماء أن يقفوا بالتحقيق على العوارض الطبوغرافية بهذه البلاد ويعرفوا ما فيها من وهاد وأنجاد، ورسموا خرائطها. وعرف العلماء بذلك أشياء كثيرة عن أواسط بلاد العرب، ووقفوا على كثير من أخبارها وأحوالها[٣]. وفي أثناء ذلك كان فريق آخر من الضباط يجمعون نبذًا مهمّة، ويؤلفون رسائل مفيدة في البحث عن سكان تلك الأقاليم ومعرفة طبائعهم وأخلاقهم الخاصة بهم. فمن هؤلاء الضباط الموسيو شيدوفو Chedufeau حكيم باشي الجيش، والموسيو ماري Mari الميرالاي التعليمجي؛ فإنهما صنَّفا عجالات جليلة في بلاد العسير

---

(١) راجع تاريخ محمد علي تأليف منجان ـ حاشية الموسيو جومار.

(٢) رسمت هذه الخريطة وفقًا للنص الفرنسي في القاهرة قبل انطلاق الحملة (المحقق).

(٣) راجع كتاب «الأبحاث الجغرافية والتاريخية على بلاد العرب»، تأليف الموسيو جومار، وبهذا الكتاب خريطة لولاية العسير، مرسومة بحسب الاستكشافات التي باشرها ضباط الجيش المصري وهي بمقياس $\frac{١}{٤٠٠٠٠٠٠}$.

وفي أخلاق العشائر المتوطنة بها[١]، وكذلك الموسيو براكس Prax من الضباط الفرنسيين المستخدمين بالجيش الذي احتل تلك البلاد؛ فإنه روى من الأخبار والآثار عن مكة المكرمة وما حولها من المدائن والديار[٢]؛ ماجعله جديرًا بالاشتهار وخلّد اسمه في صحائف الفضل والفخار[٣].

البحث عن المعادن

لما تمهَّد الأمر لمحمد علي في أرجاء الديار المصرية واستوى على أريكة حكومتها لا ينازعه فيها منازع ولا يعارضه معارض، وخفقت أعلامه فوق ربا تلك البلدان من ابتداء شطوط البحر الأبيض المتوسط إلى آخر أسوان؛ كان أول ما توجهت إليه همَّتُه البعيدة وعزيمته الصادقة تنفيذ مشروعين مهمَّين وغرضين جليلين، طالما تاقت إليهما نفسُه وحامت حولهما رغائبه منذ زمان طويل. فأوَّلهما البحث عمّا في بلاده من موارد الثروة وينابيع المعادن، والثاني توسيع مملكته وجعْلها بعيدة الأطراف شاسعة الأكناف.

وقد كانت الألسنة تتناقل كلامًا قديمًا أكدته روايات أهل الريادات، وهو أن مواطن الذهب ومعادن الجوهر توجد في البوادي التي يجهلها أهل مصر إلا قليلًا، وفي الأقاليم الجنوبية ببلاد السودان. وفوق ذلك فمعلوم أن الخلفاء قد نالوا في قديم الزمان حظًّا وافرًا وثروة عظيمة من استخراج هذه المعادن واستغلال ما تضمَّنته بطون تلك البقاع من الكنوز والأحجار النفيسة. ولما كان

---

(١) راجع مجموعة الجمعية الجغرافية بباريس لسنة ١٨٤٣.

(٢) راجع المجموعة المذكورة لسنة ١٨٤١.

(٣) العبارة الأخيرة المحتوية على المديح غير موجودة في الأصل الفرنسي، وهي من قبيل البلاغة المتكررة لدى المترجم (المحقق).

هذا الأمير المقدام في عوز إلى الدرهم والدينار لإبراز مقاصده السامية من عالم الغيب إلى عالم الوجود؛ عزم على موالاة البحث ومواصلة التنقيب طمعًا في العثور على مواطن هذه المعادن والاستعانة بها على تحقيق أمانيه بقدر ما تسمح به فرص الزمان، وتصل إليه يد الإمكان.

وقد توجَّهت همَّتُه إلى إدخال صناعة الميكانيكا (علم الآلات وجرّ الأثقال) إلى ربوع القطر المصري لينال من فوائدها ومنافعها مثل ما نالته بلاد أوروبا؛ فإنها عادت عليها بأجلِّ الفوائد وأجمل العوائد، وما ذلك إلا لاستعمال البخار؛ فإنه هو السبب في توفير الأعمال وتقليل العمال، وإنماء رأس المال، ولذلك أمر العلماء بمزاولة البحث عن الفحم الحجري أينما ينبعث فيهم روح الأمل بالعثور على مَواطنه بسبب فحصهم طبيعة الأرض واستطلاعهم على خواص طبقاتها.

تلك هي البواعث التي دعت عظيم مصر، بل عظيم العصر[1] إلى إرسال كثير من علماء الهندسة والطبيعيات وطبقات الأرض، يضربون في البلاد المصرية ويجوبون أنحاءها الكرّة بعد الكرّة.

ولسوء الحظ لم تأت هذه الإرساليات بما كانت خزينة مصر تنتظره من المكاسب والمغانم، ولكن التقارير التي حرَّرها العلماء والرواد والسُّياح بتفاصيل ما عانوه من البحث والدرس في هذا السبيل قد جاءت مشحونة بفوائد علمية محققة وأنباء فنية صادقة تلقّاها العلماء بالقبول؛ لما عرفوه فيها من كمال النفع وتمام الأهمية، وقد وفوا أمير مصر حقَّه من الشكر لأنه هو الذي يسَّر لهم هذه الأسباب وذلَّل لهم الصعاب في هذا الباب.

---

(١) لم يرد هذا المديح في الأصل الفرنسي، واقتصر الوصف على عبارة «الباشا الكبير» (المحقق).

وقد عهد هذا الوالي الذي يفتخر به بنو الإنسان وتبخل بمثله الأيام على مدى الزمان[١] بأول هذه الإرساليات في سنة (١٨١٦) إلى فريدريك كايو Frederic Caillaud المولود بمدينة نانت من أعمال فرنسا بالبحث والتفتيش عن معادن الزمرد المشهورة التي روى نَقَلة الأخبار أنها توجد في الصحراء الشرقية.

فسافر هذا العالم في (٢ نوفمبر سنة ١٨١٦) من رديسية[٢] (من أعمال قنا) ووصل في (٨) منه إلى جبل زباره[٣]، فوجد فيه كهوفًا قديمة ومغائر عتيقة ودهاليز توصَّل إليها، بل إنه وجد عندها آلات شتى وأدوات متنوعة وآثارًا كثيرة تدلُّ على استخراج المعادن من هذا الجبل، وعلى انقطاع العمل فيه فجأة.

وقد التقط من هناك بعض قطع من الزمرد، فقويت بها آمالُ محمد علي واشتدت عزائمه، وسعى في إنجاز مشروعاته، فبعث الموسيو كايو في إرسالية ثانية مؤلَّفة من كثير من الفعلة الأروام والأرناؤود[٤]. وقد بارحت هذه الحملة القاهرة في (٢ نوفمبر سنة ١٨١٧) ولكنها لم تجئ بالثمرات المقصودة، ولم تحقق

---

(١) لم يرد من هذه الأوصاف والشمائل في الأصل الفرنسي شيءٌ سوى الاسم مجردًا «محمد علي» (المحقق).

(٢) الرديسية: قرية على الهامش الصحراوي الشرقي لنهر النيل إلى الجنوب من مدينة إدفو، تتبع حاليًا لمحافظة أسوان (المحقق).

(٣) زباره: جبل في جنوب صحراء مصر الشرقية، يقع في الطريق إلى برنيس، ويحتلُّ موقعًا وسطًا بين كل من برنيس ومرسى علم والشيخ شاذلي. ما تزال به آثار من العهد الروماني لاستخراج خامات الزمرد. ويعرف الجبل على الخرائط الطبوغرافية باسم «سكيت». ويجب عدم الخلط بين جبل يشرف على النيل قرب الرديسية ويسمى الزبارة، وذلك الجبل البعيد الواقع قرب البحر الأحمر الذي قصده كايو بحثًا عن المعادن والأحجار الكريمة. ومن المرجح أن كلمة «زباره» هي تحريف لكلمة زمرد، وكل منهما محرف من الاسم «سمارجادوس» الذي تعرف به من العهد اليوناني الروماني (المحقق).

(٤) في الأصل الفرنسي: «من اليونانيين والألبان» (المحقق).

الآمال التي انبعثت عن الإرسالية الأولى. وغاية الأمر أن الفوائد التي ترتبت عليها إنما كانت قاصرة على علم الجغرافيا الطبيعية التاريخية لهذه البلاد، وذلك أن الموسيو كايو قد عثر على أطلال مدينة قديمة خاوية على عروشها، وعيَّن برنيقة[١] موقع مدينة برانيس (وقد عثر عليه فيما بعد الرحّالة بلزوني)، وزار[٢] بلاد الواحات الغربية، ورسم خريطة هذه البقاع، وكان أوّل من روى الأخبار العلمية ونقل الروايات الصحيحة عن قبيلة العبابدة[٣].

وفي سنة (١٨١٩) بعث بالموسيو فورني[٤] إلى المنحدر الشرقي في الصحراء الغربية[٥] ليبحث عن مناجم الكبريت للحاجة إليه في صناعة البارود[٦]. وفي سنة (١٨٢٠) صدر الأمر إلى الكولونيل سيف (وهو المعروف بعد ذلك بسليمان باشا) بالحفر في جبل الزيت للعثور على مواد الحريق المعدنية[٧].

---

(١) برنيقة أو برنيكي أو برنيس: اسم لميناء على رأس خليج الفول في البحر الأحمر في جنوب شرق مصر، أقيم في عهد البطالمة (المحقق).

(٢) عاد الحديث هنا مجددًا لاستكمال رحلات «كايو» (المحقق).

(٣) راجع كتاب «السياحة في واحة طيبة وفي الصحراء الكائنة بين شرقي وغربي إقليم طيبة» الذي نشره الموسيو جومار ووضع فيه خرائط وصورًا ورسومات. وراجع أيضًا خريطة خط السير في الصحراء التي بين النيل والبحر الأحمر من رسم الموسيو جومار أيضًا، الملحقة بالكتاب المذكور آنفًا.

(٤) قام يوسيب فورني Giuseppe Forni بتدوين نتاج رحلته في كتاب صدر في عام ١٨٣٩ بعنوان: Viaggio Nell'egitto E Nell'alta Nubia (المحقق).

(٥) خطأ مطبعي في الترجمة، والصواب «الصحراء العربية»، أي: صحراء مصر الشرقية، وهو الاسم الذي كان يطلق عليها عبر التاريخ لارتباطها في القرون الماضية بالسكان البدو من العرب أو «الأعراب» (المحقق).

(٦) راجع سياحة فورني في مصر العليا وفي النوبة العليا.

(٧) راجع «تاريخ سليمان باشا (الكولونيل سيف)» تأليف الموسيو مانتريبه.

ومن سنة (١٨٢١) إلى سنة (١٨٢٣) كان جماعة من الإنجليز المتخرجين في علم المعادن يضربون في القطر المصري من السويس إلى أسوان تحت قيادة الموسيو بريتن J.Burton لاستكشاف معادن الفحم الحجري، واستأنفوا أعمال الكولونيل سيف في جبل الزيت، ولكنهم لم يكونوا أسعد منه حظًّا فرجعوا مثله ولم يقضوا وطرًا[١].

وفي حدود ذلك الوقت كان الموسيو إدوارد ربل Eduard Ruppel الألماني المتخرج في معرفة المعادن والموسيو ميشل هاي Michel Hey العالم الطبيعي يجوبان بأمر محمد علي شبه جزيرة الطور (سيناء)[٢] للبحث عن معادن الذهب ومواطنه.

وفي آخر الأمر أخذ محمد علي على نفسه أن يبذل منتهى جهده مرة واحدة لبلوغ الغاية التي كان يجري وراءها من أزمان طوال حتى لا يشغل باله بعد ذلك بطلب الذهب مع تعذُّر نواله، فصمَّم على تشكيل إرسالية تكون خاتمة الإرساليات وعهد بها إلى الموسيو بروكي G.Brocchi الطلياني الذي بعد صيتُه وطارت شهرته[٣]، فأمعن هذا العلَّامة في الصحراء الشرقية مرة ثانية وجاب قفارها وبعث إلى الوالي بتقارير مفصَّلة، ولكنها ضاعت في الطريق. على أنه ضمَّن كتابه[٤] شذرات مفيدة جدًّا لتقدُّم العلوم والمعارف، غير أن هذه الحملة لم تعد على الصناعة بفائدة مطلقًا، بل لم تأت بثمرة ما.

---

(١) راجع جريدة الجمعية الجغرافية في لوندره لسنة ١٨٣٤.

(٢) سقط سهوًا من المترجم عبارة «وخليج العقبة» (المحقق).

(٣) راجع «كتاب السياحين الطليانيين في إفريقيا» للمؤلف.

(٤) راجع كتاب بروكي الذي سماه «جريدة الملحوظات» التي شاهدتُها في سياحاتي بمصر وسورية والنوبة، وفيه أطلس جغرافي.

غزوة سيوه

أول غزوة غزاها ساكن الجنان[1] محمد علي باشا لتوسيع نطاق مملكته هي التي ترتَّب عليها فتح هذه الواحة وإلحاقها بديار مصر، وذلك أنه أرسل إليها في (١٨ فبراير سنة ١٨٢٠) ألفًا وثلثمائة جندي تحت إمرة حسن بك الشماشرجي لإخضاع سكان هذه البلاد وإلزامهم الطاعة والانقياد. ولما كانت همَّته العلية متوجهة دائمًا إلى ترقية المعارف وتعزيز العلوم؛ بعث مع هذه الحملة الموسيو لينان دو بلفون التلميذ في البحرية الفرنسية، والموسيو رتشي Ricci من أطباء فلورنسا ومن مهرة المصوِّرين. وقد بعث كذلك بالموسيو دروفتي Drovetti، والموسيو فردياني Frediani وكلَّفهما باستكشاف تلك البلاد واستطلاع ما فيها من الآثار الدارسة، والبحث عن كل ما يتعلق بها، ورسم خرائط لها، وتصوير ما فيها من المشاهد والمعاهد.

فلما وصلت الحملة إلى أراضي الواحة أخذت في مقاتلة أهاليها، ولم تمض ثلاث ساعات حتى طلب الأهالي الأمان وأقرّوا للفاتحين بالخضوع والإذعان، فأصبحت بلادهم تابعة لمصر منقادة لأوامرها ونواهيها. وفي هذه الحملة أظهر حسن بك الشماشرجي من الحزم والعزم ما جعله جديرًا بالثناء والحمد، وهو الذي يسَّر لمن معه من الأوروبيين الأسباب وذلَّل أمامهم الصعاب، فتمكَّنوا من القيام بشؤون مأموريَّتهم ومباشرة أعمالهم مع ما أبداه الأهالي من المعارضة والممانعة، إذ كانوا يعتقدون أن أبحاث الإفرنج تنافر طباعهم وشعائرهم وتخالف عاداتهم وسنَّتهم.

---

(١) لم يرد وصف «ساكن الجنان» في الأصل الفرنسي (المحقق).

وقد استعان الموسيو جومار Jomard بالرسوم الطبوغرافية التي صنعها الموسيو دروفتي، فأنشأ بواسطتها خريطة ألحقها بالكتاب الذي أورد فيه تفاصيل هذه الغزوة وما حصل فيها من الحوادث والوقائع[1].

غزوة السودان

لما أتاح الله لمدِّن مصرِه، ونادرة عصره، جنتمكان محمد، الاسم عالي الشأن أن يؤيِّد دعائم النظام، ويوطِّد أركان السلام، وينشر لواء الأمان على ما ملكه من الأراضي والبلدان؛ ولَّى العلماء الأوروبيون وجوههم شطر هذه الديار، ووجَّهوا عنايتهم والتفاتهم إلى ما فيها من بدائع الآثار، وقد كان القوم تنبَّهوا إليها واستطالت أعناقهم نحوها بما استنبطته الحملة الفرنسية الكبرى من جليل النتائج وما اغتنمته من جزيل العوائد. فإن المصنفات الحافلة التي وضعها علماء هذه الحملة كانت أخذت وقتئذ في الظهور والانتشار، ونالت من الشُّيوع والاشتهار ما استوجب لها التفاتُ أولي البصائر والإبصار.

فشرع كثير من السائحين يفِدون إلى هذه البلاد، ويشاهدون ما فيها من الآثار الباهرة والمخلَّفات[2] الفاخرة، ويستفيدون منها تذكرة واعتبارًا، ويستمدُّون ما يصيبون به فضلًا وفخارًا. ولولا عناية الوالي، وكرمه المتوالي، وحمايته للسائحين من كيد الأهالي، وحفاوته بالقادمين إلى بلاده؛ لما تسنى لريفود Rifaud وستزن Seetzen وبورخارد Burchardt وليت Light وبلزوني Belzoni وبانكز Bankes وإدمنستن Edmonstone والجنرال مينوتولي Minutoli مع حملته

(١) راجع كتاب «الرحلة إلى سيوه» الذي نشره الموسيو جومار، وفيه ٢٠ خريطة ورسوم وصور.

(٢) استخدم المترجم الكلمة العربية «مخلفات» مقابل الكلمة التي جاءت في النص الفرنسي «Archéologique» التي تعني آثار الحضارة القديمة (المحقق).

الكبيرة والموسيو كايو والموسيو دروفتي أن يتمكَّنوا من تحقيق البحث وإمعان النظر.

نعم إن هؤلاء السائحين قد تيسَّر لهم أن يتخطَّوا أسوان بل وإبريم[1]، ولكن جميع البقاع الواقعة فيما وراء الشلال الثاني[2] كانت ما تزال مجهولة، اللهم إلا فيما يختصر بالأخبار التي رواها لنا علماء السلف، أو ما نقله إلينا نفرٌ قليل من السائحين أخذت منهم الجراءة مأخذها فجابوا بعض تلك الأقطار، ولم يبالوا بما كان يتهدَّدهم فيها من المخاوف والأخطار.

وقد كان في نية المغفور له محمد علي باشا الأكبر أن يبعث بإرسالية إلى تلك البقاع ليفتح بها ميدانًا فسيحًا تجول فيه جياد أفكار العلماء، سعيًا وراء البحث والتدقيق لأجل التوصُّل إلى إماطة الحجاب عن كثير من المسائل المعضلة، التي لم يتيسَّر حلُّها إلى ذلك العهد.

نعم إنه حدث من الأسباب ما حمل محمد علي على الشروع في فتح السودان، لا سيما وأنه كان محتاجًا لتجنيد الزنوج لتعويض ما خسره من العساكر في محارباته ببلاد الأعراب، وإن ما كان واقعًا حينئذ في السودان من الفتن والمحن يسَّر له الأسباب، وفتح أمامه الأبواب، ولكن من جهة أخرى لا ينكر أنه كان يرغب كلَّ الرغبة في كشف القناع عن هذه البقاع، واكتشاف مكنونات تلك

---

(١) إبريم: من قرى النوبة المصرية، كانت تقع إلى الجنوب الشرقي من أسوان على الضفة الشرقية للنهر، وقد غمرت بحيرةُ ناصر بعد تكوينها موقع هذه القرية في العصر الحديث (المحقق).

(٢) تميز بلدة «وادي حلفا» الواقعة حاليًّا في السودان جنوبي الحد السياسي مع مصر موضعَ الشلال (الجندل) الثاني الذي غمرته بحيرة ناصر منذ نهاية ستينيات القرن العشرين (المحقق).

الأصقاع؛ فإنه كان يطمع في تخليد فخره وإعلاء ذكره بتسهيل السبيل، وتذليل المصاعب أمام الباحثين عن حقيقة القارة الإفريقية. فكان يجاري أهل عصره في الاجتهاد في توسيع نطاق المعارف الجغرافية؛ لأنهم كانوا مولعين بهذا الأمر مشغوفين به للغاية، فاجتماع كل هذه الأسباب كان أكبر مؤثر في إبراز عزمه من القوة إلى الفعل. وبرهاننا على أنه كان يحب نشر أنوار المعارف على تلك الأقطار أنه كان دائمًا يبعث بعلماء الإفرنج مع الحملات والإرساليات التي كان يبعثها إليها للغزو والاستكشاف.

وفي (٣٠ يوليو سنة ١٨٢٠) أرسل محمد علي نجله إسماعيل باشا على رأس حملة عظيمة تبلغ (٣٤٠٠) من المشاة، فنزلوا في ذهبيات[١] ، وساروا مصعدين في النيل[٢] السعيد، وسار بحذائهم على البر (١٥٠٠) من الفرسان، ولما بلغت الحملة مدينة أسوان انضمَّ إليها (٥٠٠) مقاتل من قبيلة العبابدة يقودهم عابدين كاشف، الذي عيِّن حاكمًا على دنقله. وقد استمرت الحملة في طريقها إلى السودان ولم يعارضها في مسيرها أحد حتى احتلت دنقله من غير حرب ولا قتال.

ولم يصادف إسماعيل باشا مقاومة ما إلا عندما وصل إلى بلدة كورتي؛ فإن قبيلة الشائقية المعروفة بالنجدة والبأس وصدق العزيمة وثبات الجأش هجمت على الحملة وقارعتها مقارعة شديدة، ولكن الواقعتين اللتين جرتا بين الفريقين في (٤ و٦ نوفمبر) كسرتا من شوكة هذه القبيلة وأوقعتاها في الاضمحلال، ففتحت النوبة أبوابها للفاتحين.

---

(١) ذهبيات: مفردها ذهبية، وهي المراكب الشراعية المبحرة في النيل ذهابًا وإيابًا (المحقق).

(٢) يعدُّ تعبير «مصعد في النيل» من أجمل التعابير اللغوية، ويعني: «الإقلاع جنوبًا صعودًا مع النهر» (المحقق).

وبعد ذلك عاود إسماعيل باشا التوغل في جهات السودان وحاول أن يخترق الصحراء، فلم يتهيَّأ له، فرجع يسير بجانب النيل إلى أن بلغ بربر فشندي فالحلفاية[١].

وهنالك جزم القوم بعد التحقيق الدقيق بأن البحر الأبيض هو المجرى الأصلي الذي يستمدُّ منه النيل المبارك، وقد عبرت الجنود إلى الشاطئ الأيسر من البحر الأزرق واستمرّوا في سيرهم حتى بلغوا سنار، فجاءهم سلطانهم المسمَّى (بادى) مبديًا تمام الطاعة والخضوع، فحطُّوا من قَدره وولَّوه جباية الخراج والعشور.

وفي العام الثاني ذهب إبراهيم باشا، ذلك الباسل الفريد والكميّ[٢] الصنديد، الذي خضعت له طائفة الوهابيين بعد ما أذاقها من الذلِّ ما أذاقها، فلحق بأخيه في سنار واشتركا معًا في تدبير ما يلزم من الوسائل لإكمال استكشاف النهرين، والوقوف على حقيقة مجراهما، فاتَّفقا على أن يسير إسماعيل على البحر الأزرق حتى يصل إلى فازوغلي، وأن يجتاز إبراهيم جزيرة الخرطوم ويذهب للبحث عن البحر الأبيض في بلاد الدنكا، ولذلك تألَّف أسطول صغير من عدد عظيم من الأغربة[٣] والشواني[٤] والمراكب المشحونة بالعدد والأسلحة اللازمة، ومن جملة

---

(١) تقع الحلفاية إلى الشمال مباشرة من المكان الذي أقيمت فيه مدينة الخرطوم (المحقق).

(٢) الكميّ: صفة تعطى للشجاع المقدام الجريء الحافظ للسر، سواء كان متسلحًا بسلاح أو من دونه (المحقق).

(٣) الأغربة: مراكب شراعية كانت معروفة لدى القرطاجيين والرومان، وبقيت حتى زمن الدولة العثمانية ولم يتغير شكلها، ولا يستبعد أن يكون اسمها مأخوذًا من اسم الغراب، لأن مقدمتها على شكل رأسه كما كانت العادة في صنع السفن، وكان هذا النوع من السفن يسير بالقلاع (الأشرعة) بعدد من المجاديف يصل إلى ١٨٠ مجدافًا، ومن خصائصه أنه كان مزوَّدًا بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية، وقد جعلته هذه الميزة يستخدم من قبل لصوص البحر في العصور الأخيرة (المحقق).

(٤) الشواني: هي المركب المعدّ للجهاد في البحر، ويجهز في أيام الحرب بالسلاح وسوائل النفط الحارقة، ويحشد بالرجال المقاتلة أو الجنود البحرية (المحقق).

زوارق يسهل نقلها إذا صادف الأسطول في طريقه شلالات تعوقه عن السير وهو محذور بما كان يترتَّب عليه خيبة المسعى وضياع ثمرة الحملة، وكان القصد من تشكيل التجريدة بهذه الكيفية أن تسير على النيل وتحاول الذهاب إلى منتهاه ومشاهدة ينابيعه واستكشاف العين التي يتفجَّر منها.

وقالوا أنه على فرض اتصال البحر الأبيض بنهر النيجر؛ فإن المراكب تسير في هذا النهر مصعدة وتذهب في مقصدها إلى حيث يشاء الله، وأنه على فرض عدم اتصال البحر الأبيض بالنهر المذكور؛ فإن الجيش يواصل سيره ويستمدّ بجنود جديدة يجمعها في بلاد كردفان، ومن ثمة يتيسَّر لإبراهيم باشا أن يزحف على دارفور وبرنو ويعود إلى مصر عن طريق طرابلس الغرب[١].

ولكن هذا الغازي العظيم[٢] ما إن وصل إلى جبل القربين[٣] حتى فاجأه المرض، فرجع إلى القاهرة، ووصلت جنوده إلى جبل دنكا على البحر الأزرق[٤] بعد مسيرة أربعة عشر يومًا. وأما إسماعيل باشا فإنه سار على البحر الأزرق حتى بلغ فازوغلي ومرّ بسفائنه من غدير التومت[٥] الذي يصب في البحر الأزرق حتى وصل إلى بلدة سنجة Singue، ولكنه اضطر في الرابع من شهر فبراير سنة (١٨٢٢) أن يرجع القهقرى ويعود بالجيش من حيث أتى.

---

(١) توصف بالغرب تمييزًا لها عن طرابلس التي في بلاد الشام (المحقق).

(٢) يقصد إبراهيم باشا (المحقق).

(٣) القربين El-Qerebyn: تل أو جبل صغير إلى الجنوب الغربي من سنار، غير بعيد من الطرف الجنوبي من بلدة تسمى في الوقت الحاضر: المزموم (المحقق).

(٤) سهو في الترجمة، والصواب الذي جاء في الأصل الفرنسي «البحر الأبيض» (المحقق).

(٥) التومت Toumat: نهر صغير ينبع من منطقة «بني شنقول» الواقعة حاليًّا في جنوب غرب إثيوبيا على الحدود الحديثة مع السودان، ويتدفّق هذا النهر من الجنوب إلى الشمال ويصب في النيل الأزرق قبالة بلدتي فمكا وفازوغلي (المحقق).

وقد انتظم في سلك هذه الحملة نفرٌ من الإفرنج كانت لهم وظائف مختلفة في خدمة هذين الأميرين، وهم: سجاتو Segato [1] وزوكولي Zuccoli وفريدياني [2] Frediani وريتشي Ricci وكورنر Corner واسكوتو Scoto وليتورزك Letorzec وكايو [3]. وكايو هذا هو الذي كان عليه في مبدأ الأمر أن يبحث عن معادن الذهب، وهو الذي أتى على تاريخ هذه الحادثة العظيمة بالشرح الوافي والبيان الشافي، بل قد كانت له اليد الطولى في تحصيل الفوائد العلمية التي نجمت عن هذه الإرسالية.

وبعد أن وُفِّق ليتورزك في إكمال تعيين المواقع بواسطة الأرصاد الفلكية؛ تيسَّر للموسيو كايو أن يحرِّر خريطة النيل من وادي حلفا إلى مصب نهر التومت، وأن يعيِّن بالضبط والإحكام مواقع ما في هذه الجهة من الجبال والآكام، ولولا عناية هذا الرجل بالمعارف وانكبابه على تقدُّمها لما تيسَّر لنا الحصول على جملة أرصاد جوية منتظمة، ولا على تعيين المسافات وتقدير الأبعاد. وقد حرَّر رسائل مهمّة عن الطرق والمسالك، وكتب نبذًا مفيدة في الجغرافية الطبيعية للبلاد التي مرّت بها الحملة في مسيرها، وألَّف كتابًا في لغات القبائل المختلفة المتوطنة بتلك القيعان. وإنما تيسَّر للرجل أن يعمل هذه الأعمال الجليلة بما كان له من الحظوة ورفعة المكانة عند الأميرين وقربه من جنابهما وحسن رعايتهما له وإقبالهما عليه.

---

(١) سجاتو: ترك الحملة في وادي حلفا وتوغل في الصحراء، وهناك استنبط طريقة تحجير الجثث.

(٢) فريدياني: مسَّه الجنون في أثناء الحملة.

(٣) راجع كتاب «السياحة إلى مروى والبحر الأبيض وما وراء فازوغلي»، تأليف فريدريك كايو، وفيه خرائط ورسوم ومناظر.

ثم إنه أضاف إلى هذه الأعمال تاريخَ السكان ووصف طبائعهم وبيان أحوالهم ومعايشهم، فكان صُنعه هذا من أنفس الذخائر وأجلِّها فائدة؛ فإن ما جاء به من الملحوظات والبيانات لم يكن للعلماء معرفة به ولا وقوف عليه من قبل[١].

وحينما كان هذان الأميران يستطلعان مجاهل الجهات الشرقية من السودان، ويوسِّعان نطاق العرفان باستكشاف أسرار هذه البلدان؛ كان صهرهما الدفتردار يجوب الفيافي ويقطع البوادي لفتح إقليم كردفان، وكان القوم يقولون بتوفُّر أسباب الثروة فيها وانتشار اليسار بين أهاليها، وغزارة الذهب والريش والصمغ والدقيق في نواحيها، فلذلك وجَّه به محمد علي إليها ومعه (٤٠٠٠) مقاتل وعشرة مدافع.

ففي يوم (١٥ إبريل) تقدَّم مسلم المقدوم Mosallem el Magdoum عامل البلاد لصدِّ الهاجمين ودفع المغيرين، وفي اليوم الثاني استعرت نار الوغى بمدينة بارا[٢]. وما وضعت الحرب أوزارها حتى استباح المصريون ذماره[٣]، وشتَّتوا أعوانه وأنصاره وجاسوا دياره. ومن ذلك الحين دخلت كردفان في حوزة صاحب مصر[٤].

ولم يرض محمد بك الدفتردار المذكور بأن يصحبه الأوروبيون في حملته ويشاركوه في تجريدته، بل أخذ هو في تقرير الحقائق بنفسه فكتب الرسائل المهمّة في أحوال البلاد ومحصولاتها وما يصدر منها من تجارة وما يرد إليها، وأبان عن الوسائل اللازمة لتوفير أسباب التجارة وتعضيد أربابها وبث روح النشاط فيهم، وأتى على ذكر طبائع السكان وبيان أخلاقهم وأحوالهم المعاشية، وقد ضمَّن

---

(١) انظر الخرائط الجغرافية للسياحة في مروى التي رسمها كايو المذكور وأهداها إلى ملك فرنسا.

(٢) بارا Bara : تقع إلى الشمال مباشرة من مدينة الأُبيِّض حاضرة إقليم كردفان. (المحقق).

(٣) الذمار: كل ما يستحق الحمى والدفاع من حرم وشرف ومُلك (المحقق).

(٤) راجع كتاب «مصر والنوبة»، تأليف بروفري وكادالفين.

ذلك كله رحلة وتقارير كان يبعث بها إلى القاهرة. وفوق ذلك فقد رسم خريطة لهذا الإقليم، لكنها جاءت ساذجة خالية من الإتقان مجردة عن كمال الصناعة في زماننا. هذا وقد بعث الموسيو رابل فيما بعد بهذه الخريطة إلى البارون روزاك.

وهذا تعريب ما قاله عنها الموسيو لينان:

إنها «عبارة عن قطعة طويلة من القماش ملفوفة على بعضها، وقد رسم عليها صاحبها بمقتضى قياسٍ ما جميعَ الطرق المتنوعة التي تمَّ السير فيها، وهي طريق النيل وطريق دنقله إلى كردفان إلى سنار ثم إلى فازوغلي وطريق قضارف[١] إلى التاكا إلى قوزرجب[٢] إلى شندي، وقد وضَّح فيها المدائن والآبار والجبال والمياه بأسمائها، ولكنها كلها مرسومة على خط مستقيم، بحيث أنها تُذَكِّر من نظَر إليها بخرائط الطرق والدروب التي كان يرسمها الرومان[٣] في قديم الزمان»[٤].

---

(١) تقع بلدة القضارف بين النيل الأزرق ونهر عطبرة، قبالة سنار (المحقق).

(٢) قوزرجب: بلدة على الضفة الشرقية لنهر عطبرة على خطوط عرض موازية تقريبًا لمدينة الخرطوم الواقعة إلى الغرب منها. وهي تقع إلى الشمال الغربي من كسلا (المحقق).

(٣) ما قاله لينان عن هذه الخريطة يشير إلى نوع قديم من الخرائط الرومانية يعود زمنه إلى مطلع القرن الرابع الميلادي. ورغم أن تلك الخرائط كانت تضمُّ خطوط الطرق والمسافات وأسماء مواقع الحصون والحاميات إلا أنها لم تكن تضم أية معلومة جغرافية سوى أرقام المسافات بالأميال على تلك الطرق، ومن ثم جاءت فائدتها محدودة. تعرف هذه الخرائط باسم «Itinerarium Provinciarum Antonini Augusti». والمقارنة التي أجراها لينان هنا تلمح إلى أن خرائط محمد بك الدفتردار أسلوبها قديم قدم العهد الروماني، ولا يمكن الاعتماد عليها كخريطة حديثة للقرن التاسع عشر. ولمزيد من المعلومات عن هذه الخرائط الرومانية يمكن مراجعة كتاب جون بول «مصر في كتابات الجغرافيين الكلاسيك» ترجمة عاطف معتمد وعزت زيان ومراجعة أسامة حميد. الناشر «بيت الجغرافيا» القاهرة ٢٠١٧ (المحقق).

(٤) راجع كتاب لينان دو بلفون في الأعمال ذات المنفعة العمومية بالديار المصرية منذ الأحقاب الخالية.

تأسيس الخرطوم

لما مرَّ إسماعيل باشا برأس الخرطوم لم يجد فيه إلا أكواخًا صغيرة قائمة بجانب جبانة، ولكنه في سنتي (١٨٢٣ و١٨٢٤) أقبل عليه الزمان فتحوَّل وصار مدينة آهلة بالعمران وعاصمة للسودان، وذلك أن الأميرين الجليلين اللذين ملكا زمام النيل رأيا أن هذا الرأس من نقطته من أهم النقط من جهة موقعه الحربي، وزيادة على ذلك فإن الإقامة في سنار كانت أضرَّت بصحة العساكر، ففشت فيهم الدوسنتاريه وفتكت بجموعهم فتكًا ذريعًا. وكان أوّل من انتقل إلى المدينة الجديدة عثمان بك قائد الجنود، ونقل إليها مستودع الفرسان والمخازن والأشوان ثم مكاتب الحكومة وأقلامها، وقد توطَّن بهذه المدينة أيضًا جماعة من الأوروبيين ونفر من الرقيق بصحبة مواليهم، وبذلك أصبحت تلك القرية مدينة ذات شأن عظيم ومقام خطير بين البلدان، إذ صارت مركزًا للإدارة والأعمال في أقاليم السودان[١].

استكشافات جيولوجية

علمنا مما تقدَّم أن عزيز مصر الأكرم لم يوفَّق في العثور على المعادن في ديار مصر مع ما بذله في هذا السبيل من النفقات الطائلة، وأنه لم يصِب أدنى ثمرة من البحث والاستكشاف اللذين أمر بهما، ولكن همَّته العلية ما كانت تفتر عن تحقيق الأماني وقضاء الأوطار، فعزم على اختبار الأراضي التي دخلت في قبضة يمينه حديثًا، فكلَّف الموسيو رابل Rüpple والموسيو هاي Hey بالتنقيب عن المعادن في بلاد بربره ودنقله وكردفان، وأوعز إلى بروكي Brocchi بالتوجُّه

(١) راجع كتاب بروكي المذكور قبل. راجع أيضًا كتاب بختا الذي عنوانه «السودان تحت حكومة مصر».

إلى سنار بالتنقيب عن مواطن الذهب، وكانت معرفة القوم بها إذ ذاك معرفة جزئية غير شافية ولا محققة، وقد سبق لهذا الرجل أن طاف بسوريا (الشام) بأمر محمد علي باشا فأجاب وهو في غاية السرور والجذل[١]، لعلمه بأن هذه المأمورية ستجعله في مقدمة الباحثين في طبقات أراض ليست معلومة لدى العلماء.

فسافر بروكي هذا إلى السودان يصحبه كل من المستر براون Brown السبَّاك[٢] الإنجليزي، الذي كان عليه أن يذهب إلى كردفان ليشتغل فيها بالحديد، والموسيو كزامورا Casamurat المهندس بمدينة فورلي Forli، وكانت مأموريته البحث عن الوسائل اللازمة لإزالة العقبات التي تحدثها الشلالات في طريق السفائن. وقد وصل إلى سنار ثم عاد إلى الخرطوم في سبتمبر سنة (١٨٢٦) وفي (٢٣) منه اختطفته المنون[٣] عقيب حمّى كانت أصابته.

هذا ولم تمهل المنية هذا الچيولوچي البارع حتى يفيض في شرح المواضيع والنبذ التي أوردها في رحلته، بل اغتالته وهو مهتمٌّ بها صارف عنايته إليها معلل نفسه بالتوسُّع فيها كما ينبغي. ومع أن كتابه نشر على ما هو عليه[٤]، فهو يحتوي على فوائد جليلة ومزايا جزيلة من حيث الكلام في الحوادث التي وقعت بمصر وذكر سراة[٥] القوم فيها وشرح إدارتها وبيان حالتها في مقام الوجود ووصف أخلاق أهلها، وفوق ذلك فقد أشبع الكلام في نباتات البلاد التي

---

(١) الجذل بمعنى الإقدام والقوة. والحقيقة أن الكلمة غير موجودة في الأصل الفرنسي لكن المترجم عطفها هنا على صفة السرور، من باب الإطناب والبلاغة (المحقق).

(٢) الأصل في مهنة السباك سبك المعادن وصهرها لأغراض الصناعة (المحقق).

(٣) من مرادفات «الموت» وتصاغ الكلمة على كل من التذكير والتأنيث (المحقق).

(٤) راجع كتاب بروكي المذكور قبل.

(٥) السراة: أي السامق المرموق (المحقق).

رآها وطبقات أرضها وذكر أحوالها الطبيعية والإقليمية مما يحتاج إليه طلاب المعارف وأرباب التحقيق. وما زال الرجل مواظبًا على تقييد رحلته يومًا فيومًا إلى أن انقضت أنفاسه المعدودة وجاءه الأجل المحتوم. وقد أورد في كتابه جداول إحصائية وأخرى إحصائية صحية عن وباء الهيضة[١] الذي فشا في سنة (١٨٢٤) وأضاف إليه رسومًا وأشكالًا ما برح القوم يرجعون إليها ويعوّلون عليها إلى يومنا هذا.

وأما الموسيو رابل والموسيو هاي فبعد أن سارا في النهر حتى بلغا جهة كرقونس[٢] انفصلا إلى وقت محدود وأجل مضروب، فاستمر هاي في استكشاف النهر إلى أن وصل جهة الحلفاية. وأما رابل فذهب إلى جهات كردفان والأبيض، وعيَّن موقع هذه المدينة بواسطة الأرصاد الفلكية، ثم التقيا وعادا إلى مصر بعد أن طافا بالصحراء الشرقية وجالا في إقليم الفيوم.

ومجمل القول: إن الفوائد التي نتجت عن سياحتهما[٣] هي رسم أوّل خريطة لبلاد كردفان، وإعادة الاستكشاف في جزء من النهر، وتعيين مواقع متعددة، ونوالُ كثيرٍ من الفوائد النفيسة فيما يختص بالتاريخ الطبيعي.

---

(١) الهيضة: الاسم العربي لمرض الكوليرا، الذي من أعراضه القيء الشديد والهزال والإسهال ويتسبب في الوفاة. وفي الأصل الفرنسي استعمل المؤلف كلمة La peste بمعنى الطاعون التي تعني لغويًّا «مرض وبائي معدٍ» ولكن المترجم حددها بوباء الكوليرا الذي حدث في عام ١٨٢٤ (المحقق).

(٢) جاء رسم الاسم في الأصل الفرنسي «كرقوس Kargos» ولم أستطع تبيُّن موقعها على الخريطة التفصيلية للسودان (مقياس ١: ٣ مليون) والأرجح من السياق أنها في محيط بلدة «شندي» شمال الخرطوم (المحقق).

(٣) راجع كتاب رابل المسمى «سياحة في النوبة وكردفان وفي بقاع العربية الصخرية» وفيه جملة خرائط.

التُّـرع والمدارس والتنظيمات والخرائط وتقدُّم الديار المصرية

قد كان ديدن المغفور له محمد علي باشا أن يوجِّه عنايته ويصرف همَّته وعزيمته إلى تقديم البلاد وإبلاغها ذروة الإسعاد، فسار بها سيرًا حثيثًا في طريق التقدُّم والارتقاء، وأدخل في ربوعها الحضارة تتبعها الرفاهية والهناء، وشرع هذا الباسل الهُمام في مباشرة الأعمال العظام التي يعود نفعها على جميع الأنام، فأمر الموسيو كوست Coste المهندس الفرنسي بحفر الترعة المحمودية وبحر مويس وتطهير بحر يوسف[١]، وقد عاونه في ذلك الموسيو مازي Masi والموسيو سجاتو Segato المهندسان بمدينة فلورنسا (مدينة الأزهار)[٢] من أعمال إيطاليا. وقد عهد إلى الموسيو مازي بمسح الأراضي وذرعها، فقام بذلك العمل، وكتب فيه مصنَّفًا نشره سنة (١٨٢٧)[٣].

---

(١) رسم الموسيو كوست خريطة للوجه البحري في أربع صحائف بمقياس $\frac{١}{٦٠٠٠٠٠}$ وهي أول خريطة ظهرت بعد التي رسمها جاكولين، ولذلك جاءت مشتملة على التغييرات التي حصلت بمصر بعد الحملة الفرنسية. (راجع مجموعة الجمعية الجغرافية في باريس لسنة ١٨٢٣). وقد رسم الموسيو سجاتو خريطة لمديرية البحيرة وترعة المحمودية المستحدثة، وهي أوّل خريطة وضعت فيها البيانات الجغرافية وأسماء البلدان باللغة العربية بجانب البيانات الإفرنجية.

(٢) ما بين قوسين من لدن المترجم ولم ترد في النص الأصلي (المحقق).

(٣) راجع كتاب سجاتو ومازي «المناظر الرائقة بديار مصر ونبذ في الإحصاء والجبال والتاريخ». وقال لينان في صحيفة (٤٩٠) من الكتاب المذكور: وفي سنة (١٨٢٢) تم مسح الأرض في مصر تحت إدارة القبطي المدعو المعلم غالي ورسم الموسيو مازي الطلياني بمساعدة فريق من الشبان الذين تخرجوا بمدرسة القصر العيني خرائط مساحة من أقسام كثيرة من الوجه البحري، ولكن هذه الخرائط كلها قد تفرقت.

وتمَّ تنظيم التلغراف الهوائي بين مصر والإسكندرية، وكان ينقل أخبار هذه إلى العاصمة في ظرف أربعين دقيقة من الزمان[١]. وفي ذلك الوقت أيضًا أنشئت مطبعة بولاق، وكان يشتغل فيها أربعمائة عامل يطبعون باللغة العربية أهم الكتب الإفرنجية المصنفة في السياسة والجغرافيا وفنّ الحرب وغير ذلك، وتم تأسيس مطبعة المدارس الحربية في طره والجيزه. وأرسل محمد علي إلى أوروبا جماعةً من الشبان ليتلقَّنوا بها العلوم الرياضية والقانونية والطبية.

وفي ذلك الوقت أيضًا رحل باشو Pacho إلى الواحات، وبرثي Parthey إلى بلاد النوبة، وأمعن ويلكنسن Wilkinson في الصحراء الشرقية، وذهب إيهرنبرج Ehrenberg مع همبريك Hemprich إلى سواحل البحر الأحمر، وكنج Kaeng إلى بلاد كردفان. وفي سنة (١٨٢٧) ركب لينان على البحر الأبيض وسار صاعدًا حتى بلغ الآييس ولم يسبقه إلى ذلك أحد من أهل العرفان، وكان بروكش أوستن Prokesh-Osten يعيِّن بعض المواقع الكائنة فيما بين الشلالين الأول والثاني.

وحينئذ توافد العلماء على ديار مصر، وانتال السيَّاحون[٢] إليها زرافات ووحدانًا، تسوقهم الفائدة التي ينتجعونها من استقراء الآثار التاريخية

---

(١) الذي كلف بإنشاء التلغراف الهوائي هو رجل يدعى أبرو، وقد أحضر من فرنسا النموذجات (الأرانيك) والنظّارات وغير ذلك من الآلات اللازمة، وانتخبت المحلات وأقيمت الأبراج وتم إنشاء التلغراف في سنة (١٨٢٦) تحت إدارة الموسيو كوست. وهذه هي أسماء المحطات التي أقيم بها التلغراف: القاهرة (بالقلعة) ثم بولاق (بطابية) ثم أبو الغيط ثم زفيتة شلقان ثم كفر الفرعونية ثم سروة ثم منوف ثم نادر ثم بشتامي ثم زاوية البحر ثم بيبان ثم جزائر عيسى ثم تلبان ثم دمنهور ثم القروي ثم بركة غطاس ثم الكريون ثم البيضا ثم الإسكندرية.

(٢) انتال من معنى توالي وفود السائحين (المحقق).

ومشاهدة الأحوال الطبيعية، وتقودهم سهولة البحث والنظر، وتيسُّرُ الكدِّ والدأب في درس أقاليم السودان الجديدة، وتتشدد عزائمهم لما كانوا ينالونه من كامل الرعاية وجميل الوفادة وحسن اللُّقيا وإكرام المثوى لدى أمير عاقل قد استجمع شيم المروءة والفطانة، وتحلَّى بالجود والسماحة، وانفرد بالرِّصانة والحصافة[١]، فتوارد عليها شمبوليون وروزيليني Rosellini رئيسا الإرسالية الفرنسية التوسكانية الكبرى[٢] المكلفة بالبحث عن الآثار القديمة، وجاء لان ولفريد Lane Wilfried وهدمبورج Hedemberg وهولروا Holroy وبرودهو Prudhoe وبونين Bonnin وستجون St. John وبروفري مع كدلفين Brevery et Cadalvene وهوسكن Hoskins وكومب تاميزي Combes et Tamisier والبرنس بوكلير موسكاو Puckler –Muscau والدوق دوبافير[٣] Le Duc de Bavere، وغيرهم. فأخذوا يجوبون أنحاءها ويزورون أرجاءها، وما ذلك إلا لأن الشهم الذي تولَّى على مصر قد آتاه الله من الإقدام والمدارك السامية ما يعترف به كل إنسان. وقد عمل على جذب أنظار العالم بأسره نحو بلاده، وسعى في استلفات الناس إلى أعماله الجليلة، فنجح في نوال مراده. ثم إنه أراد

---

(١) يحتوي النص الفرنسي حقًّا على مضمون هذه الأوصاف التي جاءت في مديح محمد علي، لكن الترجمة العربية تعطيها بلاغة تضاعف من وقع أثرها على القارئ العربي (المحقق).

(٢) بعثة أثرية بدأت في يوليو ١٨٢٨ واستمرت حتى ديسمبر ١٨٢٩ يتقدمها جان فرانسوا شامبليون وروزيليني الإيطالي (من إقليم توسكانيا) وبعضوية ١٥ مشارك من المختصين وتمويل من بعض الأطراف في أوروبا (من بينهم بابا الفاتيكان في روما) وبرعاية من محمد علي باشا، اتجهت البعثة عبر النيل ووصلت مرورًا بالمناطق الأثرية في الجيزة وقنا والأقصر وأسوان وبلغت الجندل الثاني عند وادي حلفا قبل أن تقفل راجعة (المحقق).

(٣) صياغة غير موفقة في الترجمة، إذ المقصود هو «دوق بافاريا» (المحقق).

أن يظهر لأوروبا أنها قد أصابت في توجيه همَّتها نحو الديار المصرية، فأخذ في إصلاح أحوال البلاد بما هو معهود في عزيمته من الجد والاجتهاد، وعنى على الخصوص بإحداث المدارس وإنشاء المكاتب لتقديم المعارف وتهذيب الأهالي. وفي سنة (١٨٣٢) أمر بتدريس الجغرافيا بمدرسة الألسن لكلٍّ من يحضر من الطالبين، وعهد بالقيام بهذا الدرس إلى الشيخ رفاعة (رفاعة بك)[١]، الذي ترجم كتاب ملطبرون إلى اللغة العربية، وأنشأ في بولاق مدرسة المهندسخانة تحت نظارة أرتينبيك Artin Bey ثم لامبير بك Lambert، فضلًا عن كونه أوجد في جميع أنحاء القطر المصري مدارس كبيرة من أنواع مختلفة، وأصدر في (١٥ أغسطس سنة ١٨٣٥) أمرًا عاليًا يقضي بأنه لا يجوز لأي إنسان أن ينزع المخلَّفات (الأنتيكات) والآثار القديمة، وبإنشاء دار للتحف (أنتيكخانة) بسراي الدفتردار القديمة، ثم أنشأ نظارة بل إدارة للأشغال العمومية، وسلَّم مقاليدها إلى الموسيو لينان بك.

تجديد الأبحاث الطبيعية

كانت الإصلاحات المتنوِّعة التي أمر بها محمد علي مما يستلزم عناية تامّة ومصرفًا جسيمًا، ولكنها مع ذلك لم تشغله عن المثابرة على الأبحاث المتعلِّقة بالمعادن.

فقد كان هذا الأمير الخطير يودُّ أن يرى في بلاد مصر أصولًا تستمدُّ منها الثروة والرفاهية، فكلَّف المهندس لوفقر Le Fevre بمعاودة البحث في شبه جزيرة الطور وفي خليج العقبة، ومباشرة ما يلزم لاستخراج الرخام من مقلع كائن في الصحراء الشرقية تجاه بني سويف.

---

(١) يضم الأصل الفرنسي فقط لقب «الشيخ رفاعة» (المحقق).

وأرسل لينان بك إلى إقليم أتباي[١] ليبحث فيه عن معادن الذهب، ولكن الرجل لم يصادف نجاحًا في مسعاه[٢].

وذهب الموسيو برياني Bareani المهندس المعدني والموسيو جنسبي Ginisby لزيارة معادن الرصاص والفضة في طرسوس من أعمال سورية، وقد اشتغلا فيها.

واستخدم أيضًا الموسيو روسيجر Russeger العالم بالمعادن والموسيو كستكي Kostki العالم بالطبيعيات لاستئناف الاستكشافات المعدنية في وادي النيل في سنة (١٨٣٧)، وقد كان هذان الرجلان تفقدا معادن طرسوس قبل ذلك، وأرسل الموسيو بتريك Petherick يجوب البلاد المصرية ويتفقَّدها بصفة مهندس خصوصي له[٣].

ولما لم يجد محمد علي في الأقاليم البحرية ما يسدُّ حاجته ويحقق طلبته؛ وجَّه همَّته مرة ثانية إلى بلاد السودان فأرسل روسيجر وكستكي إلى كردفان، فراداها في جهات متعددة، وتوغَّلا في الجنوب حتى بلغا كيرامندي[٤]، وهنالك تمكَّنا

---

(١) أتباي أو عتباي: مسمى جغرافي كبير يطلق على نطاق كبير من صحراء شرق النيل وحتى ساحل البحر الأحمر، يمتد من جنوب شرق مصر وكل شرق السودان خاصة شرق نهر عطبرة (المحقق).

(٢) راجع كتاب «السياحة في أتباي» للموسيو لينان وخريطة ذلك الإقليم التي رسمها بمقياس $\frac{١}{١٢٠٠٠٠٠}$.

(٣) راجع كتاب بتريك الذي عنوانه «مصر والسودان وأوسط إفريقيا».

(٤) خطأ مطبعي في الترجمة، إذ الكلمة في الأصل الفرنسي Tiramandi وهي مشهورة اليوم في الأطالس الحديثة باسم جبل تيراماندي Jabal Tira Mandi. وتقع إلى الشرق مباشرة من مدينة قادوقلي أو كادوجلي (المحقق).

بحماية مصطفى بك حاكم المديرية من الدخول قبل غيرهما في جهة التقلي (جبلي كدارو[١] وكبتن) وكان ذلك في سنة (١٨٣٩).

وقد سار كوستكي[٢] مرارًا في الطريق التي بين الخرطوم والأبيض، وأما روسيجر فقد انتقل بعد ذلك إلى طريق البحر الأزرق وواصل السير حتى بلغ فازوغلي، وكان القصد من ذلك أن يدرس فيها مسألة معادن الذهب[٣].

وقد كان الموسيو برياني Boreani بارح الخرطوم في شهر فبراير سنة (١٨٣٨) ومعه ألف جندي، واشتغل بغسل الذهب واستخلاص شذراته من مجاري السيول في زنبو وأبوغولجي وسنجة وبولفوجه، ولكنه أعلن بأن العملية لا تأتي بفائدة عظيمة أو ربح يذكر، فاستدعاه الوالي وأحلَّه محل غضبه وسخطه. وفي غضون هذه الحوادث كان أحمد باشا يغزو قسم التاكا الذي مركزه مدينة كسلا وألحقه بولاية مصر في سنة (١٨٤٠)[٤].

سفر محمد علي إلى السودان

ولما رأى محمد علي تناقض الأقوال وتضارب الأفكار؛ عزم على أن يتوجَّه إليها بنفسه لتحصل التجربة أمامه، فقام من القاهرة في (١٥ أكتوبر) وسار حتى وصل

---

(١) تقع تلال كدارو إلى الشرق مباشرة من بلدة الدلنج، وتبدو هذه الجبال تلالًا تابعة للتخوم الشمالية الغربية لكتلة جبال النوبة (المحقق).

(٢) رسم المترجم الاسم هنا بواو زائدة عن طريقة رسمها في المرات السابقة (المحقق).

(٣) راجع سياحة روسيجر في أوروبا وآسيا وإفريقيا.

(٤) راجع ملحق التعريفات عن إفريقيا للموسيو سيوفرن.

دنقله ومنها توجَّه إلى الخرطوم على طريق صحراء بيوضة[١] في (٢٣ نوفمبر)، ونادى فيها على رؤوس الأشهاد بإلغاء الاسترقاق، وأرسل رسلًا تعلن ذلك رسميًّا في جميع البلاد. وفي الثامن عشر من شهر يناير وصل إلى فازوغلي، وفي أول فبراير حطَّ الرحال وضرب الخيام إلى جانب مدينة كان جار بناؤها تخليدًا لذكره وتمجيدًا لفخره، وقد جعل اسمه[٢] علمًا عليها وعنوانًا لها، وكان معه من العلماء والباحثين الموسيو لوفقر ودرنو d'arnaud ولامبير. أما الأول فقضى نحبه على إثر حمى كانت القاضية، وأما درنو فاعتلى ظهر مطيته وحثَّ ركاب الطلب والاستكشاف على شواطئ نهر التومت في دار برتات وجبل دول[٣]، وذهب لامبير إلى كردفان لأخذ رسوم طبوغرافية وإعداد ما يلزم لعمل سلسلة مثلَّثية[٤].

تجريدة البحر الأبيض

لم يترتب على سياحة محمد علي ما كان يمني به نفسه من الظفر بمعادن الذهب، ولكنها عادت على علم الجغرافية بأجلِّ الثمرات وأكبر المزايا. فما كان

---

(١) تقع صحراء بيوضة على الجانب الغربي للثنية الكبرى في نهر النيل شمال السودان والمعروفة باسم ثنية أبو حمد. والمقصود بأن محمد علي ذهب عن طريق صحراء بيوضة أنه لم يسر بمحاذاة نهر النيل المتعرج في ثنيته الكبرى، بل قطع طريقًا مختصرًا على الصحراء (المحقق).

(٢) راجع خط السير في مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية بباريس لسنة ١٨٣٩.

(٣) يقع جبل دول Dull في المنابع العليا لنهر التومت Toumat في منطقة بني شنقول (المحقق).

(٤) انظر خط السير الذي رسمه لامبير على صحيفة الأبيض من الخريطة الكبيرة لإفريقيا بمقياس $\frac{1}{3000000}$ التي رسمها لانوادوبيسي، وقد كتب لي هذا يخبرني بأن جميع الأوراق المختصة بهذه الأعمال توجد بالجمعية الجغرافية بباريس.

لرجل مثله أن يسير بجانب البحر الأبيض بدون أن يقوم بفكره ويختلج بصدره دواع تجذبه إلى الوقوف على سر أصله وبواعث تحمله على حل مشكله، وذلك لأن هذه المسألة طالما أتعبت العلماء في سالف الأيام ولم يظفروا منها بنيل المرام.

ومن المعلوم أنه لم يجسر أحد من الناس على الإمعان والمخاطرة في هذه الأقاليم المجهولة بعد الضباط الذين أرسلهم إليها القيصر نيرون الروماني[1]. وفي سنة (١٨٢٤) ركب الموسيو هاي في البحر الأبيض وتقدَّم نحو منابعه مسافة (٤٦) ساعة فيما وراء رأس الخرطوم، وفي سنة (١٨٢٧) سار لينان حتى وصل إلى قرية الآييس[2] الواقعة في ٣° ٤٢' من العروض الشمالية، وكذلك إبراهيم كاشف وخورشيد بك فإنهما أمعنا في الاستكشاف في بلاد الدنكا[3] ، على أن البقعة التي تمتد وراء ذلك ما زالت مستورة لم تخترقها أعين العلماء.

وهذا ما دعا المرحوم محمد علي لإرسال تجريدة إلى البحر الأبيض محاولًا بها استطلاع خبايا المجهول من تلك الأصقاع، وسبق غيره في إدراك المأمول من كشف القناع عن مكنون أحوال تلك البقاع. وقد وفقه الله لنوال ما تمناه؛ فإن

---

(١) في إشارة إلى البعثة التي أرسلها القيصر نيرون في عام ٦٠ ـ ٦١م في أثناء السيطرة على مصر. وقد اختلف المؤرخون في تفاصيل هذه الرحلة وإلى أي منطقة وصلتها في مجرى النيل، البعض يذهب إلى أنها لم تتجاوز جنوب السودان، والبعض يذهب بها إلى أبعد من ذلك (المحقق).

(٢) لم أتعرَّف على مسمَّى الآيس El-Aïs في خرائط السودان الصادرة في مطلع القرن العشرين (١٩١٧)، لكن الموقع الإحداثي يشير إلى أنها ربما يطابق اليوم بلدة نيمولي Nimule (المحقق).

(٣) كانت رحلة الموسيو لينان على ذمة الجمعة البريطانية ومصاريفها. راجع جريدة الجمعية الجغرافية في لوندره، كما تجد تفاصيل رحلة إبراهيم كاشف في الجريدة المذكورة لسنة ١٨٢٥، وراجع أيضًا رسالة هولروا المنشورة في الجريدة المذكورة.

هذه التجريدة كانت السبب في الحصول على المعلومات التي وصل إليها العلماء بعد ذلك، بل هي الأساس الذي انبنى عليه حل مسألة النيل.

وقد سافرت التجريدة الأولى من الخرطوم في (١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩) وعادت إليها في (٣٠ مارس سنة ١٨٤٠) وكانت تحت قيادة البكباشي سليم أفندي وسليمان كاشف، مؤلَّفة من أربعمائة مقاتل من رجال الآلاي الأول والثاني من المشاة المقيمين في سنار، ومن خمس ذهبيات أتت من مصر وفي كل منها مدفعان، ومن ثلاث ذهبيات أخرى، ومن فايقين[١] و(١٥) مركبًا مشحونة بالميرة والمؤنة الكافية لمدة ثمانية شهور.

وممن بعث بهم الوالي في جملة هذه الحملة رجلٌ من الفرنسية اسمه تيبو Thi Baut وكانوا يدعونه بإبراهيم أفندي، وكان خبيرًا بهذه البلاد لكثرة طوافه في جزائر شلك Chillauk. على أن هذه الحملة لم تتجاوز الدرجة السادسة من العروض الشمالية إلا بشيء قليل جدًّا.

وقد ألَّف البكباشي سليم أفندي رحلة ضمَّنها تفاصيل هذه السياحة التي هي أول مشروع حاول به القوم نوال هذا المطلب الجليل، وترجمها آرتين بك إلى اللغة الفرنسية[٢]، وكذلك صنع الموسيو تيبو؛ فإنه وضع كتابًا مشتملًا على ما شاهده أثناء رحلته يومًا فيومًا، وقد اعتنى بنشره الموسيو ديسكيراك دولويور[٣].

---

(١) يبدو «فايق» نوعًا من مراكب الحمل النهرية، ورسْمه في الأصل الفرنسي: Qyasak (المحقق).

(٢) راجع مجموعة الجمعية الجغرافية بباريس لسنة ١٨٤٢.

(٣) راجع كتاب «السفر للبحث على منابع النيل»، الذي ألَّفه تيبو.

وألحق البكباشي[1] سليم كتابه بجداول تتعلق بأرصاد الجو، وهي أول ما تحصل عليه العلماء من هذا القبيل فيما يختص بداخلية إفريقيا، وأورد معلومات كثيرة وأخبارًا محققة عن مجرى النيل والغدران التي تصبُّ فيه وعن القبائل والعشائر المتوطنة على ضفَّتَيه. ثم إنه أضاف إلى تقريره بيان الطرق والمسالك في عشرين جدولًا، كل جدول منها في فرخ كامل يحتوي على إحدى عشرة خانة وضَّح فيها ما يأتي:

اليوم/ الساعة	الطريق	التيار	الترمومتر	الطول
العمق	ترتيب الجزائر بالعدد	أسماء الجزائر	اتجاه الرياح	ملحوظات

وأما التجريدة الثانية فقد أتاح الله لها أن تعود بأجلِّ الفوائد وأجمل العوائد، ويكون لها السبق على سابقتها والتقدُّم على تلك التي تقدَّمتها. وتحرير الخبر أنها سافرت في (٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠) تحت قيادة البكباشي سليم أفندي. ولكن مقاليد الرياسة العلمية آلت إلى الموسيو درنو ورافقه الموسيو ساباتي الفرنسي والموسيو فرنه الألماني، وقد كان هذا الرجل الأخير طاف بقاع العطبرة والتاكه وسنار.

فركبت هذه الحملة على نهر سوباط وسارت مسافة مائة ميل تقريبًا، ثم أمعنت حتى وصلت إلى ٤٢° ٤, (٤:٥٤°)[2] من العروض الشمالية[3] حتى إذا

---

(١) البكب

اشي: رتبة عسكرية في ذلك العهد وتكتب أيضًا بمباشي Bimbashi (وهكذا وردت في الأصل الفرنسي)، وتعني قائد ألف من العسكر (المحقق).

(٢) أي أنهم قربوا إلى خط الاستواء أكثر مما كانوا يظنون، إذ تحقَّق فيما بعد أنهم وصلوا إلى الدرجة الرابعة وكسور لا إلى الخامسة وكسور فقط.

(٣) تقابل خطوط عرض غندكرو أو جوبا عاصمة جنوب السودان حاليًّا (المحقق).

كان اليوم المتمِّم للعشرين من شهر يناير سنة (١٨٤١) لم يكن في وسع الحملة أن تتقدم في مسيرها بسبب هبوط المياه، فسارت القهقرى وقفلت راجعة حتى بلغت الخرطوم في (١٨ مايو) من السنة المذكورة.

واعلم أنه يوجد بمحفوظات جمعية المعارف المصرية صورة من الخريطة الأصلية التي يسميها أهل هذه الحملة بـ «بيان الطرق والمسالك» وهي بمقياس $\frac{١}{٣٠٠,٠٠٠}$. وقد نشرت جمعية باريس الجغرافية صورة مصغرة من هذه الخريطة في إحدى مجموعاتها، أما الخريطة الكبيرة التي رسمها درنو فهي في عشر صحائف ومقياسها $\frac{١}{٩٠٠٠٠}$.

وقد كتب الموسيو درنو على الخريطة الموجودة في جمعية المعارف المصرية عبارة هذا تعريبها: «لما علم الجناب العالي بالفوائد والمزايا التي جاءت بها هذه الحملة؛ رسم لنا بمباشرة حملة ثانية وقال: «لقد رأيت أنكم أقصيتم السير في هذه السنة أكثر من المرة الأولى، وأملي أنكم تنجزون في هذا العام عملكم بالكمال والتمام، فسيروا في حفظ الله وعودوا بسلام».

«ولا بدع! فإن هذه الكلمات الشائقة جديرة بأن تصدر عن الأمير الجليل الذي أقبل بها علينا، ولكن أحمد باشا حكمدار عموم السودان فعل ما يناقض إشارة الأمير الحكيم بالمرة، بحيث إن ثمرات هذه الحملة لم تكن شيئًا مذكورًا، وقد اضطرتني هذه الأمور المذكورة والأحوال السيئة للاقتصار على إتمام العمل الأصلي وإكمال الخريطة التي رسمتها أولًا بالتفصيل»[١].

«وكان السفر في يوم (٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤١) على عشرة مراكب مسلحة بالمدافع الصغيرة البحرية وعليها أربعمائة رجل من المشاة وكلهم من الزنوج

(١) ما بين قوسين هو ما قاله الموسيو درنو تعليقًا على توجيه محمد علي (المحقق).

وقد وصلنا إلى ٤٢° ٢' من العروض الشمالية ثم ارتددنا على أعقابنا بعد أن عانينا المشقات وعاينّا الأهوال وفقدنا كثيرًا من الرجال».

ولما كان الموسيو درنو عائدًا من سفرته هذه غرقت أمتعته بجانب الشلال الثاني، فضاعت جميع مصنفاته ونبذه العلمية، ولم يبق منها سوى الخريطة التي أشرنا إليها.

وعند عودته إلى ديار مصر صدر له الأمر بأن يرسم مجرى النيل من الخرطوم إلى أبي حمد، وأن ينظر في شأن الآبار الكائنة في بادية كرسكو، ويحفر آبارًا أخرى لتتيسَّر المواصلات مع بلاد السودان ويسهل على القوافل السفر إليها في كل أوان وزمان.

التجارة بين مصر والسودان

اطمأنت القلوب على عناية الحكومة المصرية بشأن السائحين وتعضيدها لهم في كل مكان، وأقدم كثير من أبطال الرجال على إحداث علائق تجارية مع تلك الأقطار الشاسعة التي فتح محمد علي أبوابها للحضارة ومهَّد فيها سبل التجارة، حيث جاء برون روللیه وبتريك وديفيسبير وترّانوفا وإخوان بونسيه وغيرهم فشادوا المحاط[١] وأقاموا المنازل، ثم دفعتهم صوالحهم وساقتهم احتياجات تجارتهم إلى الإمعان في داخل البلاد فكشفوا لنا أمر بحر الغزال وبلاد الجورز Djours وشلالات ماكيدو[٢] ونهر سوباط[٣]، وغير ذلك من الاستكشافات

---

(١) محاط: صيغة جمع للمفرد «محطة» (المحقق).

(٢) ماكيدو Makedo: مسارع مائية على النيل الأبيض تقع على دائرة عرض ٤,١٨ وخط طول ٣١,٣١ شرقًا في منتصف المسافة تقريبًا بين الرجاف شمالاً ونمولي جنوبًا (المحقق).

(٣) سقط من الترجمة هنا عبارة «إضافة إلى شعب المندو Mundu»، وهو شعب معروف أنه يقطن جنوب غرب السودان (المحقق).

الجغرافية. وفي أثناء ذلك بنى المبعوثون الكاثوليكيون[١] دورًا في الخرطوم وغندكرو وسنتا كروتشي (أي الصليب المقدس) ليقيموا بها هم وأتباعهم وأشياعهم، وكان نوبلكر Knoblecker، وفينكو Vinco، وبلترام Beltrame، ومرلنج Morlang، وكثيرون غيرهم يجدُّون في البحث والنظر حتى أنهم وسَّعوا نطاق المعلومات الجغرافية عن تلك البقاع توسيعًا عظيمًا[٢].

غير أن رداءة الإقليم وحرارة الجوّ القتالة، وعدم انتظام المعيشة في تلك البلاد القاصية أوقعت الرعب في قلوب القوم حتى نزع أعظمهم جراءة وأشدهم إقدامًا، فترك المبعوثون دورهم واستولى جلابة الخرطوم على زرابي التجار شيئًا فشيئًا ورجعوا إلى عادتهم القديمة من ممارسة مهنتهم الشنيعة وأعمالهم الفظيعة[٣].

على أن الحكومة المصرية ما برحت في أثناء ذلك توالي البحث وتواصل الاستكشاف، فكان الموسيو كاستلي والموسيو دومون Dumant يجوبان دار برتات ويقطعان ما فيها من الفلوات، وأما الدكتور بني Penny فكان يتجوّل في بلاد النوبة ويستكشف النيل حتى وصل إلى رجاف، وفي سنة (١٨٤٣) باشر أدهم بك عمل ميزانية عمومية لأراضي الفيوم، ورسم لينان بك وجماعة تحت إدارته خريطةً وافية بمقياس $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ لإقليم الفيوم، وابتدأ لامبير Lambert في عمل السلسلة المثلَّثية بالوجه البحري، وأخذ الموسيو برون والموسيو شادوفو Chaduffau يحرِّران الجداول عن زيادة النيل وهي أوّل جداول حَرِية بالاعتبار جديرة بالتفات أولي الأبصار[٤].

---

(١) المقصود هنا البعثات التبشيرية لنشر المسيحية بين قبائل الإقليم (المحقق).

(٢) راجع الكراريس السنوية لجمعية راهبات الراعي الرؤوف، المطبوعة في فيرونا.

(٣) راجع كتاب بختا والفصل الثاني من كتاب شوينفرت «في قلب إفريقيا».

(٤) راجع كتاب إيفان السابق ذكره صحيفة ١٠٩.

وفي ذلك العصر أقيمت رصد خانة في بولاق، وكان بدء الرصد بها في سنة (١٨٤٦)، وعاود إيمي بك Aime البحث في جبل الزيت وفي الواحات الغربية على مواد الحريق المعدنية، وأخذ حكاكيان بك Ekekian يفجِّر بئرًا عميقة جدًّا في جهة طره بالقرب من القاهرة لنوال هذه الغاية أيضًا، وقد حاول تجديد استخراج الزمرد في جبل زباره[١]، وكذلك طاف الطبيعي فيجري Figari مع النباتي هسن Husson لغاية علمية في تلك البقعة القفرة الكائنة في شرقي الديار المصرية، فيما بين خط توازي القاهرة وخط توازي كورسكو، وقد طاف أيضًا شبه جزيرة الطور منذ أكتوبر سنة (١٨٤٧ إلى يناير ١٨٤٨)[٢]. ثم صدر الأمر إلى الكولونيل كوالسكي[٣] والموسيو تريمو Tremaux والنباتي سيانكوسكي Sienkowsky لمباشرة البحث بصفة نهائية في البقعة التي على النهر الأزرق التي قيل بوجود معادن الذهب فيها[٤].

وفي هذا الوقت توجَّهت همّة محمد علي لازدياد نفوذه وتوسيع سلطانه وإعلاء كلمته في الأقطار البعيدة لكي تتسع دائرة المتاجر والمكاسب أمام أهل بلاده فيسعدون حالًا وينعمون بالًا، لذلك جهَّز حملة حربية لإعادة السلطان أبي مديار على دارفور، ولكن الحوادث السياسية منعت من تحقيق الأمل ونوال المنى، فلم يتيسَّر إبراز هذا المشروع إلى حيِّز العمل.

---

(١) راجع رسالة حكاكيان بك التي عنوانها «مذكرة على الصحراء الشرقية»، وهي مدرجة في الخبر السابع عشر من جرنال جمعية بنغالة الآسيوية.

(٢) راجع كتاب فيجري بك الذي عنوانه «أبحاث جغرافية وعلمية على الديار المصرية».

(٣) سقطت من الترجمة جنسية الكولونيل كواليسكي Kowalesky، وهو روسي الجنسية كما جاء في الأصل (المحقق).

(٤) راجع الكتب التي نشرها الثلاثة السيّاحون.

وفي آخر هذا الحكم الطويل الذي تفتخر به العائلة المحمدية العلوية المجيدة وتتباهى بما تمَّ فيه من الأعمال المفيدة والمشروعات الجديدة والاستكشافات العديدة؛ جاء واجرن[1] Waghorn واقترح أن يكون سير بوسطه أوروبا إلى الهند عن طريق السويس، فأفاد بذلك تجارة العالم قاطبة، وكان ذلك في سنة (١٨٤٢)، وترتَّب عليه تغيير مهمٌّ وتعديل عظيم في حالة مصر السياسية.

وخلاصة القول: إن حكم محمد علي جاء على الجغرافيا بفوائد لا تحصى، ومزايا لا تستقصى، وقد ترتَّب على حروبه وغزواته في آسيا ومرور جنوده الظافرة في أرجائها زيادةُ الحصول على معلومات وأخبار لم يكن للعلماء معرفة بها من قبل، وكلّها تختصُّ بالبلاد التي فتحها، وأدخل أهلها في زمرة رعاياه. وقد تيسرت معرفة تركيب الأراضي وتكوين طبقاتها في بلاد مصر بما والاه فيها من التنقيب والتنقير مدة عشرين سنة من الزمان، قضاها في البحث على مواطن المعادن في مصر وفي السودان.

ولا غرو أن تقدَّمت المعارف في أيامه وعادت العلوم إلى بهجتها الأولى ونضرتها السابقة؛ فإنه كان للعلماء مصدرَ إنعام ومنبع إكرام وكهف رعاية تامّة وربَّ عناية عامة. وقد لبَّى دعوته في الحضور إلى بلاده كثيرٌ من الأفاضل والمحقِّقين الذين برعوا في العلوم وأحاطوا بدقائقها واطلعوا على أسرارها،

---

(١) توماس واجرن Thomas Fletcher Waghorn ملاَّح وضابط ورجل اقتصاد إنجليزي (١٨٠٠ ـ ١٨٥٠) طوَّر مشروعًا للنقل عبر أرض مصر يختصر طريق الدوران حول رأس الرجاء الصالح من خلال نقل بحري ـ نهري ـ بري، وكان التطوير الأساس في تدعيم حركة النقل بين القاهرة والسويس. اعتبر دي لسبس أن واجرن هو الملهم لمشروع قناة السويس فأقام له تمثالًا نصفيًّا عند مدخل القناة في بور توفيق بميناء السويس سنة افتتاح القناة في ١٨٦٩، لكن الأهالي قاموا بتحطيم هذا التمثال خلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ على أنه رمزًا للاستعمار (المحقق).

فوضعوا في هذه الديار قواعد علم الجيوديسيا [علم تقسيم الأرض] والفلك والإحصاء، وقد توطَّدت أركان هذه العلوم فيما بعد ونالت تقدمًا عجيبًا. ولقد كان في الإرساليات التي بعث بها إلى السودان ما يستوجب الإطناب في مدحه والإطراء في الثناء عليه؛ فإن من أراد أن يقدِّر قيمتها حقَّ قدرها فلينظر إلى ما نجم عنها من الفوائد والمزايا من تذليل العقبات وتمهيد المصاعب التي كانت تحول دون معرفة إفريقيا. ولولا تذليله إياها لبقيت تلك البلاد مجهولة أعوامًا ودهورًا، فلقد كانت هذه الإرساليات والحق يقال سببًا كبيرًا في الحصول على المعلومات الصادقة والأنباء الصحيحة عن بلادٍ كانت غير معروفة تمام المعرفة مثل النوبة العليا وكردفان والبحر الأزرق، وعن بلاد كانت مجهولة بالكلية فيما بين رأس الخرطوم ورجاف يرويها البحر الأبيض.

وغاية القول: إن الرجل أبقى له في العالم أيادي بيضاء ومآثر غراء تضمن له حسن الأحدوثة والذكر المحمود ما بقي هذا الوجود.

حكْم إبراهيم باشا

(من ٢١ يوليو إلى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨)

لما أصيب الوالي الأكبر باختلال القوى العقلية من أثر الشيخوخة؛ رأى الباب العالي عدم قدرته على القيام بأعباء الأمر والنهي، فأصدر فرمانًا يمنح به الولاية على أريكة القطر المصري إلى البطل المغوار وفارس الهيجاء إبراهيم باشا أكبر أنجال محمد علي باشا، وقد تُلي هذا المرسوم العالي في الديوان الكبير بمصر القاهرة في يوم (٢١ يوليو ١٨٤٨)، ولكن حكم هذا الغازي الشهير لم يمكث إلا زمنًا قصيرًا حتى انقضت أنفاسه المعدودة وجاءته منيَّته الموعودة على إثر المرض الذي كان يهدُّ قوته ويتهدَّد حياته، وكانت وفاته في (١٠ نوفمبر) من تلك السنة[١].

هذا وقد انطفأ سراج محمد علي من عالم الشهود، وأفلت شمسه عن هذا الوجود في (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩)، فسبحان الحي الذي لا يموت[٢].

---

(١) راجع «حياة الكولونيل سيف» تأليف فنترينيه.

(٢) دام حكم إبراهيم باشا نحو خمسة أشهر (من ٢١ يوليو حتى ١٠ نوفمبر من عام ١٨٤٨) وتوفي في حياة محمد علي. وتلاه في الحكم عباس وبقي محمد علي باشا على قيد الحياة كهلًا يخرف لما يقرب من عام كامل في ولاية عباس حتى توفي في أغسطس ١٨٤٩ (المحقق).

حكْم عباس باشا

(من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٤)

لما استوى المغفور له عباس باشا على كرسي الولاية المصرية وجَّه أفكاره وصرف أنظاره إلى مشروعات وأعمال تغاير ما اهتم به سلفُه، وذلك أنه حوَّل وجهته عن الجهات القبلية وولَّى وجهه شطر الجهات الشرقية من الأقطار المصرية، فرسم بإجراء ما يلزم لعمليات الموازين في برزخ السويس، وببذل العناية في إتمام الطرق والدروب في شبه جزيرة الطور. وفي أيامه درس الموسيو دوجوتبرج De Gottberg ما يلزم لإنشاء طرق المواصلات في الصحراء الشرقية، وتم تمهيد الطريق الموصل من مصر إلى السويس تمهيدًا حسنًا بالحجر، فتيسَّر لعربات البريد أن تسير به يوميًّا لنقل السياحين وبوسطة الهند، وصدر الأمر بتشغيل السكة الحديدية من الإسكندرية إلى كفر الزيات[١].

وصدر الأمر أيضًا إلى الموسيو دوجوتبرج بالنظر فيما يلزم لتسهيل عبور الشلالات[٢]، وطاف الموسيو بتريك Petherick المهندس المعدني في شبه

---

(١) راجع جداول السكك الحديدية في الملحقات، وقد كان الباب العالي عارض معارضة شديدة وأحدث صعوبات جمّة بخصوص إنشاء السكة الحديدية بديار مصر. ولذلك أمر جناب الوالي الموسيو أباته Abbate (وهو الآن أباته باشا) بالإجابة في كراسة نشرت باللغة الطليانية، وهذا عنوانها «مسألة السكك الحديدية المصرية والتنظيمات».

(٢) راجع كتاب دو جوتبرج الذي عنوانه «شلالات النيل» ـ خريطة الطريق فيما بين قنا والقصير بمقياس $\frac{١}{١٨٥٧٠٠٠}$ في الكراسة السنوية التي تنشرها جمعية برلين.

جزيرة الطور[١] وفي الصحراء الشرقية وفي مديرية كردفان باحثًا عن معادن الحديد[٢].

وطاف الموسيو فيجري Figari أيضًا بشمال بلاد العرب في البقعة المعروفة بالعربية الصخرية[٣]، وحرر العالم الفاضل محمود الفلكي[٤] أوّل تقويم مصري (أي النتيجة السنوية).

---

(١) الاسم الذي كانت تعرف به شبه جزيرة سيناء كلها آنذاك (المحقق).

(٢) راجع كتاب بتريك الذي عنوانه «مصر والسودان وإفريقيا الوسطى».

(٣) العربية الصخرية: مسمًّى جغرافي قديم منذ عهد الرومان، يطلق على الصحراء الصخرية في سيناء وجنوب فلسطين وشرق نهر الأردن وشمال غرب شبه جزيرة العرب. وكانت كل هذه المناطق تعتبر جزءًا من مسميات بلاد العرب لدى الرومان، التي كانت بها ثلاثة أقسام أخرى. فقد أطلق اسم «بلاد العرب» على قلب جزيرة العرب، وأطلقوا مسمى «العربية الصحراوية» على الجزء الشمالي الواقع بين بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام المعروف في التراث العربي باسم «بادية الشام»، أما مسمى «العربية السعيدة» فقد أطلقوه على القسم الجنوب من جزيرة العرب؛ قاصدين به الأرض الخصبة التي تمثلها بلاد اليمن (المحقق).

(٤) محمود الفلكي (١٨١٥ ـ ١٨٨٥) أحد أبرز علماء الفلك العرب في العصر الحديث، ورائد من رواد النهضة العلمية في مصر . تخرج من المدرسة البحرية ثم التحق بمدرسة المهندس خانة وتخرج فيها في ١٨٣٩م وصار معلمًا بتلك المدرسة ورشَّحه أستاذه علي باشا مبارك لبعثة لفرنسا فسافر إليها في ١٨٥٠وظلَّ يدرس بها وبعدد من الدول الأوروبية لنحو تسع سنوات وحين عاد لمصر تدرَّج في عديد من الوظائف العلمية والإدارية حتى عيِّن وزيرًا للمعارف. له جهود عديدة في رسم الخرائط وعلم الفلك. وافته المنية في عام ١٨٨٥ وهو في عمله وزيرًا للمعارف بعد أن أنتج عديدًا من الأعمال العلمية والمؤلفات الرصينة الرائدة (المحقق).

وفي أيام هذا الأمير نالت مسألة إنشاء قنال السويس أهمية عظمى، واشتغل الناس بشأنها كثيرًا وتحدَّثوا بأمرها طويلًا. ونحن لا نتعرض في هذا المقام للإفاضة في تاريخ جميع المشروعات التي قدَّمها القوم، ولكنّا نقول إن مسألة اختلاف سطحي البحرين (وكان القوم يعتبرونها العقبة التي لا تذلَّل والصعوبة التي لا تقهر) أوجبت حصول عمليات موازنة عدتها ثمانية، وقد ساعدت الحكومة المصرية على إجراء هذه العمليات ومدَّت يد الإمداد لإنجازها طبق المراد، وقد كانت خمسة من هذه العمليات فيما بين خليج السويس وخليج ببلوزا (الفرما) والثلاثة الأخرى أجريت على الخط الذي يمتدُّ من السويس إلى القاهرة إلى رشيد (وقد كان ذلك بنية النظر في المشروع الذي من مقتضاه إنشاء قنال عذب داخل البلاد).

وأشهر هذه الأعمال وأجدرها بالذكر على صفحات الأوراق هي التي باشرها الموسيو بوردالو Bordaloue والموسيو لينان في سنة (١٨٤٧)، وكذلك الموسيو لينان في سنة (١٨٥٠) بناءً على إيعاز من الموسيو ساباتي Sabatier قنصل فرنسا وسلامة أفندي وإبراهيم أفندي رمضان والدكتور أرنو بك D'Arnaud[١].

وفي عصر هذا الوالي ظهرت الخرائط الأولى التي رسمها لينان[٢]، وتمت سياحات البارون دوملر Baron de Müller وهاملتن Hamilton وهوجلن Heughlin وهانسال Hansal.

---

(١) راجع كتاب ديبلاس الذي عنوانه «قنال السويس».

(٢) كان لينان قد أتمَّ في سنة ١٨٤٠ خريطته المختصة بالمياه والجزائر وما أشبه ذلك مما يختص بالوجه البحري، وعرض على محمد علي أن ينشرها فلم يحز طلبه قبولًا. وفي سنة ١٨٤٥ قدِم إلى مصر الدوق دوموبنسيه لمستودع الحربية فنقشت فيه الخريطة بأمر ملك فرنسا. وفي سنة ١٨٤٥ طبع بعض نسخ منها، وقد أمر نابليون نقش ورسم الخرائط الأخرى التي رسمها لينان وهي خريطة المياه في مصر السفلى والوسطى والعليا بمقياس ١/٢٠٠٠٠٠ في ثماني صفحات.

ولكن أعظم المزايا وأجلّ النعم التي نالها المصريون في أيامه هي كونه «أباح لهم التجارة مع بلاد الحبشة والسودان بعد أن كان محمد علي قد احتكرها، وذلك لعمر الحق إصلاحٌ عظيم نافع ونعمة جليلة ومنّة كبرى تدلُّ على كرم السجايا وعالي الهمّة وشرف العصر. نعم، إنه ترتَّب عليها نقصٌ في إيرادات خزينة الوالي، ولكنها أوردت الأهالي موارد الثروة والغنى، وأوجبت لمصطنعها مزيد الحمد والثناء»[١]. وقد قُتل[٢] عباس في ليلة (١٣ أغسطس سنة ١٨٥٤)[٣].

(١) راجع كتاب فنترينيه المذكور.

(٢) جاء في الأصل الفرنسي «واغتيل fut assassiné» (المحقق).

(٣) صوَّب المترجم هنا سهوًا جاء في الأصل الفرنسي الذي ذكر أن اغتيال عباس كان في ١٨٣٤ (المحقق).

حكْم سعيد باشا

(من سنة ١٨٥٤ إلى سنة ١٨٦٣)

لما تولَّى هذا الأمير الحازم ساس الأمور بدراية تامّة وعزيمة صادقة، وكان محبًّا لتقدُّم التمدُّن ورفع منار الحضارة، ولذلك عاد الاهتمام بمسائل السودان إلى مجراه، فتنبهت الأفكار إلى ما هنالك من المطالب والمكاسب.

وقد كان فريق العلماء على اختلاف ديارهم وتنوُّع مِللهم يهيمون بكلِّ جوارحهم إلى الوقوف على سرِّ منابع النيل المكنون، ويتشوَّقون إلى معرفة حقيقة هذا النهر الميمون، فتقدَّم الكونت ديسكيراك دولوتور D'escayrac de Lauture إلى ساكن الجنان سعيد باشا وعرض عليه لائحة بيَّن فيها كيف يكون حلُّ هذه المسألة المعضلة، فنال منه لطفًا وإقبالًا، وحاز مشروعه لديه استحسانًا وقبولًا، ولكن المقادير أبت خروج هذا المشروع إلى الوجود بسبب طرق حوادث ليس من شأننا أن نذكرها في هذا المقام، مع أن المصاريف التي بذلها الوالي في سبيل إنجازه تجاوزت المليون من الفرنكات.

وقد وجه حضرة الوالي بصاحب الدولة حليم باشا للتفتيش في إدارات السودان وأعماله وفحص شؤونه وأحواله[1]، وبعد ذلك أراد أن يحذو حذو محمد علي وينهج منهجه فتوجَّه لزيارة تلك البقاع بنفسه فوصل الخرطوم في (١٦ يناير سنة ١٨٥٧).

---

(١) راجع كتاب «مصر والسودان»، تأليف الدكتور إيلياروسي.

وكان بمعيَّته جناب الدكتور أباته Abbate، وهو أوّل من لاحظ اهتزاز البارومتر في صحراء كورسكو، وكتب كتابًا بأحوال هذه الرحلة وتفاصيلها[١].

ولقد امتاز هذا الأمير بجميل السجايا وجليل المزايا، وآتاه الله من الحكمة وفصل الخطاب ما قضى له بالتوقير في عيون الأجانب والأحباب، ولنا على ذلك دليل قوي وبرهان قاطع نستمدُّه من الأوامر التي رسم بها لتأييد النظام في تلك الأقطار وإبلاغ الأهالي نعيم الرفاهية ورغد العيش وحسن الحال (وهذه الأوامر منسوخة في كتاب الموسيو أباته المذكور قبل).

ولأجل تنفيذ تلك الأوامر في أوقاتها بسهولة أمر جنابه العالي بتقسيم تلك البلاد إلى خمس مديريات، وهي: سنار وكردفان والتاكه وبربر ودنقله، وعين أوّل مدير على البحر الأبيض.

ولما كانت تجارة الرقيق ألغيت رسميًّا أنشأ محطة عسكرية على نهر سوباط للتحقُّق من قطع دابرها باقتفاء أثر النخاسين وصدِّهم عن هذه التجارة الممقوتة[٢].

وفي سنة (١٨٥٧) أنشأ حضرة سعيد باشا أيضًا محطات في صحراء كورسكو لتسهيل وصول الأخبار والمكاتبات، وعند عودته إلى مصر كلَّف الموسيو موجل Mougel المهندس الفرنسي بالبحث عن الوسائل التي يترتَّب عليها تقريب المسافة وتقليل شقّة السفر فيما بين وادي حلفا والخرطوم، إما بإنشاء سكة

---

(١) راجع كتاب الدكتور أباته باشا الذي عنوانه «الكلام على إفريقيا الوسطى» أو «رحلة صاحب المكانة والفخامة سعيد باشا إلى أقاليم السودان».

(٢) راجع مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية في القسم الثاني من المجموعات، وانظر أيضًا سياحة الدوق دامون إلى غندكرو.

حديدية، وإما بحفر ترعة، فحرَّر هذا المهندس مشروعًا بإنشاء السكة الحديدية، ولكنه لم يعمل به لكثرة النفقات التي كان يستلزمها إنجازه.

وقد صرح جنابُه العالي بمباشرة سياحات ورحلات أخرى نشبت في أثنائها المنية باثنين من الفرنسية المستخدمين بالحكومة المصرية، أحدهما الدكتور كوني Cuny وقد حاول أن يمعن في التطواف في دارفور، والآخر الدكتور بيني Penny فإنه ظنَّ في نفسه مقدرة على حل مسألة منابع النيل، وإنما أطمعه في نيل هذا المرام العسر ودفعه إلى الإقدام والمخاطرة في هذا المسلك الوعر ما رآه من نجاح سبيك Speke وجرانت Grant في استكشافاتهما.

وقد كتب كوني رحلة نفيسة عادت على العلم بفوائد مهمّة جدًّا؛ فإنه وصف فيها طريق الصحراء بغاية التدقيق، وأشبع الكلام على وادي الكاب Wadi-el-Kab، ولم يسبقه إلى ذلك أحد من العلماء، وعيَّن موقع بركان (جبل نار) على مسافة نصف يوم من وادي مرّاد Wadi Marrad، وذكر أيضًا أن وادي الملك[1] عميقٌ جدًّا تنحدر إليه مياه الأمطار فيوصلها أحيانًا إلى نهر النيل السعيد.

وخلاصة القول: إن هذه الرحلة تضمنت نبذًا مفيدة جليلة، ولها أهمية كبرى بالنسبة للتجارة، وكل ذلك يدلُّ على إتقان الكتاب وفضل مؤلِّفه[2].

---

(١) أسدى المترجم خدمة جليلة بكتابة اسم الوادي بشكله الصحيح «الملك» رغم أن الأصل الفرنسي وضعه Mek. ووادي الملك Melik: أحد أشهر وأكبر الأودية التي تخترق صحراء غرب السودان في محور يمتد من الجنوب الغربي عن الفاشر ويتجه شمال شرق ليصل نهر النيل عند منطقة الدبة Debbah الواقعة على الضفة اليمنى لنهر النيل قبالة «دنقله العجوز» (المحقق).

(٢) جريدة رحلة الدكتور كوني من أسيوط إلى الأبيض من ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٥٧ إلى ٥ إبريل سنة ١٨٥٨.

هذا وقد أمر سعيد باشا بإكمال الأعمال ذات المنفعة العمومية التي شرع فيها سلفُه في أرض مصر الحقيقية. فبعد أن تمَّ إنشاء السكة الحديدية من كفر الزيات إلى القاهرة في سنة (١٨٥٦) أخذ في مدِّ الخط الحديدي فيما بين القاهرة والسويس[١].

وقد عهد إلى شركة دوسو Maison dussaud بإنشاء حوض في السويس، وأمضى معها في سنة (١٨٦٢) عقدًا بمبلغ (٨,٨٠٠,٠٠٠) من الفرنكات، وفي أوّل فبراير سنة (١٨٥٧) صدر الفرمان السلطاني مؤذنًا بإنشاء القومبانية المجيدية[٣] La Campagnie de Navigation *Medjidie*[٢].

ولما سمحت مكارم جنابه الفخيم بمنح الالتزام في إنشاء قنال السويس في (٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤) لم يقتصر على ذلك، بل ساعد بكلِّ ما في وسعه على إنجاز الأبحاث والأعمال التمهيدية، بحيث إن الشروع في العمل على ساحل البحر الأبيض المتوسط كان في (٢١ إبريل سنة ١٨٥٩) ولم يأت يوم (١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢) إلا وقد شقّوا القنال لغاية بحيرة التمساح وجرّوا مياه ذلك البحر إليها.

وقد تمَّ في عهده أيضًا تنظيم مصلحة البحث عن الآثار المصرية القديمة وحفظها مع العناية الكاملة، وقد اهتمَّ الوالي بهذا الأمر كثيرًا وتفضَّل بمساعدة

---

(١) ثم ترك هذا الخط واستعمل بدله الخط من مصر إلى الإسماعيلية إلى السويس.

(٢) القومبانية المجيدية: أول جمعية تأسست في مصر بهدف نشر الثقافة عبر التأليف والنشر، وظهرت للنور عام ١٨٦٨، وستلحق بها في المضمار نفسه الجمعية الجغرافية الخديوية التي تأسست في ١٨٧٥ ، ثم الجمعية الزراعية في ١٨٨٠ (المحقق).

(٣) تقرير على رصد كسوف كلي في دنقله ـ وهو عبارة عن رسالة لمحمود بك الفلكي مطبوعة في باريس ١٨٦١.

الموسيو بروكش Brugsch على نشر مجموعات الآثار الجغرافية، وفي عهده تأسست جمعية المعارف المصرية[١].

ثم إن هذا الأمير أصدر أمره إلى محمود بك الفلكي بالتوجُّه إلى دنقله لرصد كسوف مرئي في بلاد النوبة[٢]، فاغتنم هذا العلامة الشهير تلك الفرصة وعيَّن اثنين وأربعين موقعًا فلكيًّا فيما بين أسوان ودنقله[٣].

ولما عاد إلى مصر رَسَمَ له برسم خريطة القطر المصري فعيَّن بواسطة الأرصاد الفلكية أهم المواقع الموجودة بالدلتا بانيًا ذلك على اعتبار خطٍّ نصف النهار المارِّ بالهرم الكبير. ثم أخذ التفصيلات بعد ذلك بالبلانشيطة، وعاونه على إنجازها فريق من المهندسين تحت أوامره[٤].

ولما كان هذا الأمير الجليل يرعى العلماء والسيَّاحين؛ أخذوا يفدون إلى هذه البلاد وقد باشروا فيها أشغالًا ساعدت على تقدُّم المعارف من نحو الذهاب إلى الأقطار القاصية والاستكشافات المفيدة، حتى أصبح غامض أمر النيل على وشك الانكشاف والظهور.

وفي هذا العصر تمَّت رحلات الإرسالية الألمانية الكبيرة La grand expédition allemande في السودان الشرقي وإقليم كردفان، وكان فيها من العلماء منزنجر Münzinger واستيدنر Steudner وبايرمن Beurmann

---

(١) راجع خريطة محمود بك الفلكي للوجة البحري وهي في اثنتي عشر صحيفة وباللغة العربية ونشرها بروكهاوس من ليسبك. راجع أيضًا الملحقات.

(٢) وقد كانت مصر اشتركت قبل ذلك في المؤتمر الذي انعقد في سنة ١٨٥٥.

(٣) في هذا الوقت أتمَّ الدكتور جياردو أبحاثه الجيولوجية في بلاد سورية، وقد رسم خريطة حوران في أيام غزوات إبراهيم باشا.

(٤) خريطة جيولوجية لوادي النسل وشبه جزيرة الطور.

وكنزلباخ Kinzelbach، وتمت سياحة أنتينوري Antinori ولوجان Lejcan والمدموازلات تين Tinne وتريمو Tremaux والموسيو برويسايز Preyssaener وبنسيه Poncet وفون هارنيه Von Harnier والبارون درنيم d'Arnim وبيادجا Piaggia، الذي كان أوّل من دخل في بلاد نيم نيم Niam-Niam وقال: إن بالجهة الغربية مسطحًا عظيمًا من الماء (لعله يشير إلى الكونجو)، وكذلك أتمَّ مباني سياحته، فهو أكثر السائحين توغُّلًا في الجهات الجنوبية، ومضت مدة طويلة ولم ينهج أحدٌ سبيله، بل بقي زمنًا عظيمًا وهو حائز لفخار السبق والتقدُّم في هذا المضمار. وتمت أيضًا سياحة ترانوفا Terranova وكاستلبولونيبزي Castelbolgnesi إلى نهر سوباط ورحلة برون روليه Brun-Rollet إلى بحر الغزال وإلى حفرة النحاس[1] Hofra en Nahass.

ولقد كانت خاتمة هذه الرحلات وتاج رأس جميع السياحات رحلة أسبيك وجرنت؛ فقد سافرا من زنجبار، وفي (٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢) أتاح لهما حسن طالعهما وتمام حظهما فشاهدا عند مساقط ريبون نهر النيل المبارك وهو يخرج من بحيرة فكتوريا[2]، فتمَّ الاستكشاف وانحسم الخلاف، فهي واسطة عقد الرحلات وأعظم ما يتباهى به العصر السعيدي على ممرِّ الأوقات.

---

(١) راجع كتاب الموسيو شارل أدمون الذي عنوانه «مصر في معرض باريس العام» سنة ١٨٦٧. وحفرة النحاس: بلدة على المنابع العليا لبحر العرب، تقع على الحدود الغربية لجنوب السودان (المحقق).

(٢) راجع الملحقات.

حكْم إسماعيل باشا

(من ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩)

المعارض ـ الأعمال العمومية

قد امتاز حكم هذا الخديوي بما ظهر في أيامه من النشاط العجيب والاجتهاد الذي لم يسبق له مثيل في هذه البلاد، وذلك لأنه صرف قصارى الهمّة والعزيمة، وبذل فائق العناية والفطانة، وهي خصال جليلة أحرزها واعترف الناس له بها، فتمَّت في أيامه الأعمال العمومية العظيمة، وكمل إنشاء مصالح جديدة، وحصلت استكشافات طبوغرافية، وذهبت الإرساليات والتجريدات إلى البلاد البعيدة واتَّسع نطاق علم الجغرافية بكثير من الاستكشافات، كما اتَّسع ملك مصر بإضافة الأملاك والملحقات، وانتشرت فيه العلوم بتأسيس المدارس والمكاتب والشركات الصناعية، وامتدَّت أعمال البوسطه وأسلاك التلغراف إلى أقاصي السودان، واشتركت مصر في المعارض العمومية والمؤتمرات الدولية بأوروبا وأمريكا. وخلاصة القول أنه حصل في حكمه كل ما من شأنه توفير الثروة والتدبير، وإعلاء كلمة البلاد وإعزاز مقامها في العمران.

وفي (٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩) كان الاحتفال بإتمام القنال، وهو احتفال جاء في غاية الأبهة والجمال، اجتمع فيه الملوك والأمراء والأماجد، فكان شائقًا رائقًا ما رأى الناس مثله في حسن الإتقان وكمال المعدّات إلا ما سمعوا به في القصص الموضوعة والحكايات المخترعة.

وقبل ذلك الاحتفال اشتركت الحكومة المصرية في المعرض الدولي الذي انعقد بمدينة باريس في سنة (١٨٦٧)، ونالت فيه نجاحًا وفلاحًا، وصار لها شأن يذكر بما حازته في القسم الخاص بالجغرافية من المركز المهم والمقام السامي.

ومما بعثت به الحكومة المصرية إلى هذا المعرض الخرائط التي رسمها محمود بك الفلكي، وخرائط فيجري بك، والأعمال الطبوغرافية التي باشرها تلامذة المدارس الأميرية. ومن أجلّ ما عرض فيه أيضًا خريطة كبيرة مجسَّمة تمثل للناظر هيئة الوجه البحري والقبلي بمقياس $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$، والذي اصطنع هذه الخريطة في قوالب الجبس هو الموسيو كارل شريدر Karl Schrœder تحت ملاحظة وإدارة الموسيو مرشر Mircher ميرالاي أركان حرب، وقد أنشئت هذه الخريطة على وفق الخرائط الموجودة قبلها، وتشكل لأجلها فرقة طبوغرافية (ركاب مركب من جملة مهندسين)، فطافوا القطر لإجراء ما يلزم لهذه الخريطة من الأعمال، وهي موجودة الآن في أركان الحرب بالقاهرة.

ومما عرض في المعرض المذكور مجموعة من المعادن والصخور استحصل عليها فيجري بك، ومجموعة من الحيوانات المتحجِّرة أعدَّها الدكتور ريل، ومجموعة أخرى من النباتات الصناعية استلفتت الأنظار واستغرقت الأفكار.

وقد كان للأبحاث الخاصة بطبائع الأمم نصيب وافر وحظٌّ كبير في المعرض المذكور، فمن ذلك كثير من التماثيل التي تصوّر للرائي هيئة أهل مصر الآن، وجملة مجموعات في غاية الرونق والجمال واردة من بلاد النوبة وسنار وكردفان والسودان الشرقي، ومنقسمة إلى سبعة أقسام.

وقبل أن يتمَّ فتح القنال ظهرت في البلاد حملة إصلاحات نافعة ترتَّب عليها تقدُّم التجارة ورواج أعمالها رواجًا عظيمًا.

فمن تلك الإصلاحات:

* إنشاء البوسطه المصرية في سنة (١٨٦٥).

* أعمال ميناء[*](١) السويس في سنة (١٨٦٧)، وميناء الإسكندرية على يد قومبانية جرنفلد Grenfield في سنة (١٨٦٨).

* إنشاء قنطرة قصر النيل في مصر القاهرة، المعروفة بالكوبري.

* إنشاء السكة الحديدية من مصر إلى السويس عن طريق الإسماعيلية في سنة (١٨٦٨).

* حفر الترعة الإسماعيلية، والترعة الإبراهيمية من أسيوط إلى إشمنت(٢).

* إنشاء الرصد خانة الخديوية بالعباسية تحت إدارة إسماعيل مصطفى بك الفلكي.

* أبحاث عن حركة الأمواج البحرية، باشرها قرويط(٣) مصري في خليج الفرما (من ٧ يناير إلى ٦ مايو سنة ١٨٦٧).

---

(١)[*] وردت كلمة الميناء في النص مؤنثة وأبقيناها حفاظًا على الأصل.

غنيٌّ عن البيان أن مصر لا تسهم بقطرة ماء في ميزانية مياه النيل بحكم التحوُّل المناخي القاحل الذي تعيشه بيئتها منذ بضعة آلاف سنة. ويزيد الوضع استحواذًا أن تأثر مصر بالنيل الأزرق لا يتوقَّف فقط على كمية المياه، بل الأهم على ما تحمله هذه المياه من المواد الطينية التي خلقت تربة السهل الفيضي التي قامت عليها الزراعة.

(٢) إشمنت: بلدة على الهامش الصحراوي الغربي لوادي النيل فيما بينه وبين منخفض الفيوم (المحقق).

(٣) القرويط: لفظ أمريكي اصطلح عليه أهل البحر في هذا الزمان، وهو تعريب Corvette، وهو سفينة حركة صغيرة مقامها في الديمة بين الفرقاطة والإبريق.

* أبحاث جغرافية وتاريخية، أجراها الموسيو ماريت Mariette ومحمود بك الفلكي[١].

ولما تكرم الجناب الشاهاني بفرمان سلطاني على إسماعيل باشا والي مصر بقائمقاميتي سواكن ومصوع اشترى هذا الأمير جزيرة عيذاب[٢] من قومبانية باستري في سنة (١٨٦٧).

تشكيل أركان الحرب ـ الاستكشافات الطبوغرافية

وفي هذا العصر كمل تأسيس عموم أركان الحرب، وألقت أزمة إدارته إلى الكولونيل تشارلز بومري ستون من الولايات المتحدة بأمريكا[٣].

وكان الفصل (القسم) الثالث من هذه الإدارة ـ وهو الفصل (القسم) الجغرافي ـ معدًّا للقيام بجلائل الأعمال العلمية والاستكشافات المفيدة، وكان الغرض من إنشائه تربية شبّان الضبّاط المصريين وتدريبهم على الأعمال والأتعاب التي تقتضيها الإرساليات والاستكشافات التي عقدت النيّة وقتئذ على إجرائها بأقاليم السودان، وكان القائم عليهم في هذا جماعة من ضباط الأمريكان قد حنَّكتهم التجارب وعجموا عود الزمان.

---

(١) راجع رسالة محمود بك الفلكي في مجموعة جمعية المعارف المصرية سنة ١٨٧٥ وعنوانها «كلام على الإسكندرية القديمة وعلى الفرع السيبينيقي القديم لنهر النيل».

(٢) في الأصل «عِدّ Edd» والعبارة كاملة «La maison Pastre L'ille d'Edd» (المحقق).

(٣) راجع رسالة أباته باشا التي عنوانها «ترجمة حياة الطيب الذكر الجنرال ستون». ولمختار بك كلام في هذا الموضوع تراه في العدد الثالث من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

فلما تمَّ تشكيل أركان الحرب بهذه الكيفية كانت باكورة أعماله استكشاف صحاري البلاد المصرية، فذهب الكولونيل ميسن Mason إلى الطواف في واحة سيوه، والكولونيل بوردي Purdy لرسم ضواحي حلوان وقد عاونه جماعة من شبّان الضباط الوطنيين على مباشرة استكشافات دقيقة استمرت من سنة (١٨٧٠) إلى سنة (١٨٧١) في البقعة التي بين النيل والبحر الأحمر من ابتداء الخط الممتد بين المقطم والسويس إلى خط توازي القصير[١]. وقد قال الجنرال ستون في هذا الصدد ما تعريبه:

«إن هذه الاستكشافات وإن لم تأت بزيادة ذات بالٍ عمّا كان معلومًا قبلُ من جغرافية تلك البلاد، إلا أن الضباط الذين اشتركوا فيها عادوا وقد شحنوا دفاترهم بإرشادات طبوغرافية مهمّة ونبذة مستوفاة في طبقات تلك الأرض وما فيها من المعادن، وقد اعتنوا بتعيين مواقع معادن الذهب ومقالع البورفير ويواقيت الجوهر، التي كان يستخرجها من هنالك قدماء المصريين قبل المسيح بألفي سنة وسبعمائة سنة. ومن جهة أخرى فإن أولئك الضباط رسموا الطرق والدروب التي يمكن أن تسير العساكر فيها من أي سلاح فيما إذا قامت الحرب واستعرت نار الوغي»[٢].

ولما كانت سنة (١٨٧٣) أخذ الكولونيل كولستن Coloston يستكشف الطريق التي بين قنا وبرانيس، وفي هذه المدينة التقى بالكولونيل بوردي قادمًا عن طريق البحر واستصحبه معه في التجوُّل بالبقعة الكائنة بين هذه الميناء وبين

---

(١) راجع خريطة استكشاف البحر الأحمر والصحراء الشرقية للكولونيل بوردي، وهي محفوظة بالجمعية الجغرافية الخديوية.

(٢) راجع رسالة ستون باشا في العدد السابع من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

بربر ليوفِّق بين أبحاثه الجديدة وأبحاث لينان التي باشرها فيها قبل ذلك بأربعين سنة[١].

هذا وقد كان تقرَّر بين الحضرة الخديوية الإسماعيلية والموسيو راؤول بيكتيه Raoul Pictet أن يضرب هذا العالم في وادي النيل من الخرطوم إلى مصر القاهرة، وينظر في الأراضي نظرًا جيولوجيًّا مدققًا، ولكن هذا المشروع العظيم لم يخرج من حيِّز القوّة إلى حيِّز الفعل[٢].

إلحاق بعض جهات السودان الشرقي بالديار المصرية

وفي خلال ذلك صدر الأمر بتعيين منزنجر محافظًا لمصوع، فوسَّع أملاك الحكومة المصرية في أطراف السودان الشرقي، وفي سنة (١٨٧٠) تمَّ على يديه إلحاق بلاد البوغوس [٣]وبَرَكَه وقضارف، وبعد ذلك ببضع سنين أدخل في حوزة مصر تلك الوديان الشرقية التي تنصبُّ إليها مياه الحماسين. هذا ولم يقتصر الرجل على التفرُّغ لأعماله السياسية، بل كان يتذرَّع في أثناء تجوُّله في بلاد العرب مع القبطان سميللر Smillers وريادته لأرض بني عامر برفقة السائح

---

(١) راجع رسالة كولستن التي بيَّنوا فيها يومية السياحة من وإلى برانيس وبربر المنشورة في العدد التاسع من القسم الثاني من مجموعة الجمعية المذكورة. راجع أيضًا رسالة بوردي التي عنوانها «استكشاف بين برانيس وبربر» المنشورة في العدد الثامن من القسم الثاني من المجموعة المذكورة، وانظر في العدد المذكور خريطة خط السير من برانيس إلى بربر التي رسمها بمقياس $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$.

(٢) راجع الجزء الثالث عشر من السنة الجغرافية للموسيو دوسان مرتين.

(٣) بوغوس Bogos: منطقة في وسط إريتريا يسكنها شعب يحمل ذلك الاسم، يعيشون في النطاق الغربي الداخلي لميناء مصوع إلى الجنوب مباشرة من أرض «الحباب». في الكتابات الحديثة أصبح يشار إلى شعب البوغوس باسم بايلن أو بلين Bilen/Blin (المحقق).

بيادجا Piaggia وأسفاره بصحبة هيلابرانت Hilderbant على ساحل البحر الأحمر فيما بين طوكار ومصوع إلى اقتطاف كل ما من شأنه تقدُّم العلوم وتوسيع نطاق المعارف.

وفي نهاية الأمر أرسل منزنجر كاتب أسراره هاجن ماخر لاستكشاف سواحل الصومالي وبلاد هرر، وقد كان في نيّته أيضًا أن يحرِّر خريطة للسودان الشرقي، ولكن الأيام لم تساعده على تحقيق كلِّ أمانيه فلم يتيسَّر له سوى رسم نهر الجاش وضواحي كسلا.

سفر السير صامويل بيكر

لما تمَّ فتح قنال السويس وجَّه الخديوي إسماعيل كلَّ عزيمته وهمَّته إلى الأقاليم الجنوبية، فأرسل نفرًا من أهل السياحة والاستكشاف يتلو بعضهم بعضًا ويكمل الآخر ما وقف عليه الأول، وبعث بالأجناد فضمَّ الأقاليم وافتتح البلاد حتى أنه لم يمض إلا قليل من السنين إلا وقد صارت مصر مملكة واسعة الأكناف بعيدة الأطراف تمتدُّ من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى خط الاستواء إلى قلب إفريقيا، وقبل ذلك كانت الجغرافيا المعروفة عن هذه الأقطار غير مستوفاة كما ينبغي، فأمكن حينئذ تقريرها على قواعد اليقين والعلم الصحيح بما توصَّل إليه ضباط الحكومة المصرية وعمّالها من الأعمال التي باشروها في تلك الأقطار بعد أكيد التثبت بالمشاهدة والاختبار. وزد على ذلك أن صاحب مصر شمل برعايته جماعة من السائحين والعلماء فتسنَّى لهم أن يجوبوا تلك الآفاق بكلِّ حرية وأمان، وجاءت أعمالهم وافية بتحقيق المقاصد وترقية العلوم.

ولقد جال في خاطر إسماعيل باشا منذ سنة (١٨٦٥) أن ينشئ خطًّا حديديًّا في الأقطار السودانية، بل إنه صدق في عزمه على إنفاذ هذا المشروع فعهد إلى المستر ووكر Walker والمستر بري Brey بالنظر في الطرق اللازمة لإنشاء سكة

حديدية تصل بين أسوان والخرطوم، ولكن أعمالهم لم تخرج إلى عالم الوجود، ومثلها الأعمال التي باشرها إسماعيل بك مصطفى (وهو الآن إسماعيل باشا الفلكي) في سنة (١٨٦٧) لأجل إنشاء خط من سواكن إلى شندي. وقد كانت نتيجتها رسم طريق لهذا الغرض طولها (٥٦٣) كيلومترًا.

وفي سنة (١٨٧١) عهد إلى المستر فولر Foweler باستئناف درس هذه المسألة، وكان خلاصة أعماله الإقرار على إنشاء خط آخر يكون مبدؤه في وادي حلفا ونهايته في الخرطوم بعد أن يمر على شندي، وقد أخذوا في تنفيذ بعض هذا المشروع، ولكنه لم يتمَّ. وفي أثناء ذلك شرعت الحضرة الخديوية في تنظيم إدارة السودان وإصلاح شؤونه فقسمته إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: مديرية دنقله وبربر، وهما تابعتان لمصر.

ثانيًا: الخرطوم وكردفان وسنار وفازوغلي والبحر الأبيض بما فيه مديرية فاشوده سنة (١٨٦٤)، وكانت قاعدة هذا القسم مدينة الخرطوم.

ثالثًا: السودان الشرقي وسواكن ومصوع والتاكه والجهات المجاورة لها.

وبعد أن تمَّم ذلك عزم على توسيع أملاكه من جهة الجنوب، وفي شهر إبريل سنة (١٨٦٩) عهد إلى السير صمويل بيكر بقيادة تجريدة عظيمة كانت على أهبة السفر إلى أقاليم خط الاستواء التي يخترقها النيل، وكان الغرض منها «إدخال الحضارة إلى ربوعها، وتوطيد دعائم المدنية في مدائنها، وتنظيم الإدارة، وإلغاء الاسترقاق، وترتيب التجارة على أساس قوي ونظام قوي»[1].

---

(١) راجع كتاب شوينفرت الذي عنوانه «في قلب إفريقيا» ترى فيه تفاصيل عن هذه الأصقاع وعن النخاسة والاسترقاق.

فلما علم العالم المتمدِّن باسم رئيس الحملة وجسامة الاستعدادات وتأكيد التنبيهات وتوالي المكاتبات وصدور التعليمات الرسمية وغير ذلك مما يدلُّ على السعي في تقدم التمدُّن ونفع الإنسانية؛ تمنَّوا من صميم أفئدتهم أن يقيض الله نجاحًا لهذه الإرسالية فيما تسعى إليه، وأن يقدِّر لها فلاحًا فيما تبتغيه.

وقد ذكر السير صمويل بيكر في كتابه الذي عنوانه (الإسماعيلية)[1] جميع التفاصيل والمجريات المتعلِّقة بهذه التجريدة التي صرفت عليها الحكومة المصرية ما مقداره عشرون مليونًا من الفرنكات، وكان ابتداؤها في (٨ فبراير سنة ١٨٧٠)، وانتهاؤها في شهر أغسطس سنة (١٨٧٤).

وبعد أن أنشأ السير صمويل بيكر في ملتقى نهر سوباط بالنيل محطة لتوقيف مسير المراكب المشحونة بالأرقّاء دعاها بـ«التوفيقيّة» سافر حتى وصل في (٢١ إبريل سنة ١٨٧١) إلى غندكرو، وفي (٢٦ مايو) أعلن رسميًّا بأن البلاد المحيطة بها قد دخلت في حوزة صاحب مصر، واستبدل اسم المدينة بـ«الإسماعيلية».

وفي شهر ديسمبر من تلك السنة اضطر بيكر لمقاتلة قبيلة باري ليتيسَّر له إخضاع العشائر المجاورة للمدينة؛ فإنهم تظاهروا بالتمرُّد والعصيان. وقد انتهى القتال بترتيب نقط عسكرية في اللابور Labor وفاتيكو Fatiko وفاويره Foweira ، وقد احتل بيكر بعد ذلك بلاد أونيورو Unyoro، وخلع ملكها كاباريجا Kabarega، وولَّى بدله ريونجا، ثم أنشأ في هذه الأصقاع محطة ماسندي وتذرَّع بذلك إلى بسط نفوذ الحكومة المصرية إلى الدرجة الثانية من العروض الشمالية.

وقد كتب السير صمويل بيكر عند عودته إلى مصر ما تعريبه: «لقد تركت خلفي حكومة وضعت قواعدها على أساس مكين، والأهالي يدفعون بكامل

---

(١) راجع هذا الكتاب، ويسمى «قصة حوادث الإرسالية إلى أواسط إفريقيا».

الانتظام الضرائب المفروضة على القمح، وتمَّ بحمد الله طرد صيادي الرقيق من تلك البقاع، وهنالك ثمانية عشر وابورًا تجاريًّا تتجوَّل في النيل لأجل هذه الغاية».

وقد ترتَّب على هذه التجريدة منافع علمية جليلة ومزايا فنية كثيرة، منها معرفة طبوغرافية تلك الآفاق ومعرفة أحوال من يسكنها من القبائل والأقوام، ومنها تعيين مواقع فلكية مختلفة أهمها كورسكو والخرطوم على يد جناب الكونت دوبيزيمون Comte de Bizémont، والتوفيقية وغندكرو وأفوندو Afundo واللابور على يد يوليان بيكر ابن أخي رئيس الإرسالية[1].

ومما يتصل بهذه التجريدة المهمّة ما دار في خلد الحضرة الخديوية الإسماعيلية وباشرت الشروع فيه فعلًا بمصر القاهرة؛ فإنها أمرت الكولونيل بوردي بركوب البحر والنزول في جهة مونباز[2] Mombaz وجَوب تلك الوديان إلى بحيرة فكتوريا بالمرور بين جبلي كينيا وكلمنجارو، وأعدت لذلك من لزم من الضباط والعساكر ومعهم السفائن والذخائر وكل ما يحتاجون إليه، ولكن وقع من الحوادث السياسية ما أوجب العدول عن هذا المشروع بالكلية.

وبينما كان حضرة الخديوي السابق يراقب سير تلك الحوادث بصدر حرج وفؤاد منقبض لكونها كانت تختص بمصر؛ ما كان يألو جهدًا في تشجيع العلماء، ولا ينفكُّ عن شمولهم بأنظاره وإغداق نعمائه عليهم.

فمن ذلك أنه تفضَّل في سنة (١٨٧٧) فرسم بجعل سفينة بخارية تحت تصرف الدكتور بك D'Beke والعلامة ميلن Millen الجيولوجي الشهير ليتفقَّدا خليج العقبة ويباشرا فيه أبحاثًا علمية.

---

(١) راجع أعمال الجمعية الجغرافية الملكية في لوندره في سنة ١٨٧٤.

(٢) مونباز: تحمل على الخرائط الحديثة اسم «ممباسا» (المحقق).

ومن ذلك أيضًا أنه تبرَّع بمبلغ مئة ألف فرنك للاشتراك في إنجاز الحملة الكبيرة التي سافر بها رولف Rohlfs في بوادي ليبيا ومفاوزها[1]، ولقد نالت هذه الحملة من بعد الشهرة واستكمال الرواية ما يغنينا عن تفصيل الكلام عليها، ولكنا نقول بأن الجناب الخديوي أمر الموسيو ريمبل Remele الذي صحب التجريدة بأن يرسم صورًا فوتوغرافية للمواضع والمواقع التي تمر عليها القافلة وأعطاه ما يلزمه من المال وقد بلغ عدد الصور التي رسمها هذا الرجل خمسين صورة.

وفضلًا عن ذلك فقد ساح الدكتور بركش والموسيو لودج في الواحات لاستكشاف ما فيها من الآثار القديمة والرسوم الباقية عن القرون الخالية، وكانت سياحتهما تحت عناية الجناب الخديوي ورعايته.

وفي نهاية الأمر تمَّ تشكيل مصلحة التعداد والإحصاء[2] تحت إدارة الموسيو دوريني De Régny.

الاستكشافات في كردفان ودارفور

قد أتاح الله لمصر حوادث مقرونة بالسعادة والهناء، فتيسَّر لها أن تخدم علم الجغرافيا بجلائل الأعمال؛ فإنها لما أتمَّت فتح دارفور وهرر؛ مهدت لأبنائها العاملين المجتهدين طريق اقتباس معلومات ما كانوا حائزين لها من قبل، وهم دأبوا حقًّا في أعمال الدراية والفطانة فحقَّقوا الآمال وخلدوا لأنفسهم حسن الأحدوثة على مدى الأجيال.

---

(١) بعثة رولف هي واحدة من أهم الرحلات الاستكشافية العلمية في صحراء مصر الغربية (الصحراء الليبية آنذاك). وقد جابت أصقاعًا كثيرة وكادت أن تضم عددًا متنوعًا من علماء الجيولوجيا والنبات والأحياء (المحقق).

(٢) راجع إحصائية الديار المصرية التي نشرتها نظارة المعارف العمومية في سنة ١٨٧٣.

وريثما خفقت أعلام مصر في أعالي دارفور وتوطَّدت كلمتها فيها وتمَّت لها الغلبة على أهليها في سنة (١٨٧٤)؛ أصدر الجناب الخديوي الإسماعيلي أمره إلى الجنرال ستون رئيس عموم أركان الحرب بتنظيم إرسالية عظيمة لإكمال الاستكشاف في هاتيك البقاع وفي بلاد كردفان أيضًا، فقابل المرسوم الخديوي بالامتثال وشكَّل فرقتين من الضباط جعل على رأس الأولى منهما الميرالاي كولستن وأوعز إليه بالتوجُّه إلى كردفان ليباشر فيها البحث والفحص، ثم ينضم إلى الفرقة الثانية لمعاونتها على إنجاز مأموريتها، وقد سلم قيادة الفرقة الثانية إلى الميرالاي بوردي وأمره بريادة بلاد دارفور.

وهذه أسماء الضباط الذين تشكلت منهم فرقة الميرالاي كولستن:

القائممقام ريد، ولكنه لم يطق احتمال المتاعب والمصاعب التي تستوجبها السياحة فقفل راجعًا إلى القاهرة، الملازم أول عامر رشدي، الملازم أول محمد ماهر، المعاون أحمد حمدي، الملازم أول يوسف حلمي، الملازم أول خليل فوزي، الدكتور بفوند العالم بالطبيعيات، وتسعون رجلًا وأربعة من الضباط.

وقد بارحت الحملة القاهرة في شهر ديسمبر سنة (١٨٧٤) وركبت السفائن على النيل إلى أن وصلت وادي حلفا، ثم سارت بجانب الشاطئ الأيسر إلى مدينة الدبه، وبعد أن تجولت في وادي ماتول Mathoul عن طريق إيلاي Elai وصافيه[1] Safieh عاودت المسير حتى بلغت مدينة الأُبيض في (١٢ يونيو سنة ١٨٧٥).

وقد قدر الله في أثناء ذلك أن أصيب الكولونيل كولستن بمرض شديد أشرف فيه على الهلاك، فاضطر لترك قيادة الحملة إلى الماجور بروت، وقد ألَّف

(١) تقع بئر الصافية El Safieh على دائرة عرض ١٥,٣٠ شمالًا، في منتصف الطريق بين الدبة والأبيض (المحقق).

كتابًا نشرته أركان حرب الجيش المصري، وبعث إلى الجمعية الجغرافية الخديوية برسالتين[1]، وبخريطة عن بيان خط السير الذي اتَّبعه.

وأمّا الماجور بروت فقد وصل الأبيض عن طريق سواكن والخرطوم، ورسم وهو في الطريق الدروبَ والمسالك التي اخترقها، وأعمل عزيمته الماضية وهمَّته العالية في إنجاز ما عهد إليه من الأعمال، حتى إنه في يوم (٢١ مارس سنة ١٨٧٦) كان في إمكانه أن يسافر إلى دارفور لكي يلحق فيها بالكولونيل بردي وفريقه.

واعلم ـ وفقك الله ـ أن ما اتصل إليه الكولونيل بروت من الاستكشافات والاستطلاعات في إقليم كردفان لما يورث العجب العجاب ويقضي بالدهشة والاستغراب، وهذا بيانها[2]:

* رسم خط سير طوله (٦٠٠٠) كيلومتر، وقد باشر ذلك الضباط بأجمعهم متفرقين في آن واحد من نقطة واحدة، ذاهبين إلى جميع الاتجاهات.

* خريطة عمومية لهذا الإقليم.

* جملة خرائط تفصيلية.

* تعيين سبعة عشر موقعًا بالأرصاد الفلكية.

* رسوم شتى وصور متنوعة.

* ملاحظات وبيانات تتعلق بالكون والفساد الذي هو علم الجو (المتيورولوجيا) وبالأنجاد والوهاد.

---

(١) تقرير على كردفان الشمالية والوسطى في مجلد واحد بمطبعة أركان حرب (باللغة الإنجليزية)، نبذة في الكلام على عربان كردفان (في العدد الثالث) من القسم الأول من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

(٢) الطريق من الدبة إلى الأُبيض في العدد الرابع من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

* جملة مجاميع نباتية وجيولوجية، جمعها الدكتور بفوند من جهات متعددة وأراض متنوعة.

وقد جاب هذا الرجل في سبيل ذلك الغرض ما ينوف عن أربعمائة كيلومتر.

* أبحاث على تلك البلاد فيما يتعلق بتركيبها الطبيعي.

* رسائل مفيدة جدًّا في الكلام على السكان وأصناف الناس والتجارة والأخلاق والعادات، وغير ذلك.

هذه هي الفوائد والمكاسب التي نالها العلماء من هذا الاستكشاف في كردفان؛ فإنه تمَّ مقرونًا بالضبط والإتقان، واشترك فيه جماعة من الضباط المصريين من فصل (قسم) ثالث أركان حرب[1].

---

(١) راجع التقرير العام على مديرية كردفان المطبوع باللغة الإنجليزية في سنة ١٨٨٧، مطبعة عموم أركان الحرب؛ فإنه يحتوي على ما يختص بالجغرافيا والطبوغرافيا والسكان وتربة الأرض ومجاري الماء وتصريفها والمحصولات وموارد الثروة والتجارة، وزيادة على ذلك ففيه ملحقات تتعلق بمبادئ إنشاء الخرائط وخطوط السير والأرصاد الفلكية والملحوظات البارومترية والترمومترية، وفيه أيضًا الخرائط الآتية:

ـ خريطة مديرية كردفان بمقياس $\frac{١}{٦٠٠٠٠٠}$ رسمها بروت وماهر أفندي وفوزي أفندي.

ـ خريطة الطريق من سواكن إلى بربر بمقياس $\frac{١}{٨٠٠٠٠٠}$ رسمها بروت وماهر أفندي.

ـ أربعة قطع من الطريق من النيل إلى الأبيض.

ويوجد عندنا بالجمعية ما يأتي:

ـ خريطة القسم الشرقي لكردفان بمقياس $\frac{١}{٤٠٠٠٠٠}$ رسمها أحمد أفندي حمدي.

ـ خريطة مدينة الأبيض بمقياس $\frac{١}{٢٠٠٠٠٠}$ رسمها خليل أفندي وفوزي وعامر أفندي ويوسف أفندي حلمي.

ـ خريطة توزع الغابات في كردفان.

وبعد أن أتمَّ الميرالاي بروت أعماله هذه؛ قام من الأُبيض بتجريدة من الزنوج ـ كما قدَّمنا ـ وبلغ في اليوم الرابع والعشرين من إبريل مدينة الفاشر، وهي قاعدة دارفور بعد أن رسم الطرق والمسالك التي مرَّ بها[١].

أما حملة الكولونيل بردي فقد كانت مؤلفة من:

القائممقام ميسن الفلكي، الملازم أول محمود صبري من أركان حرب، والملازم أول محمد سامي من أركاب حرب، والملازم أول سعيد نصر، والملازم ثاني خليل حلمي، والطبيب محمد أمين، واثني عشر صف ضابط وعسكريًّا من أركان الحرب.

وسارت هذه الحملة حتى ألقت بنفسها ـ كما قال الجنرال ستون ـ من دنقله العجوز[٢] إلى الأراضي المجهولة، ووصلت إلى تندلتي Tendelti أي الفاشر عن طريق جديدة اختطَّتها هي لنفسها وأخذت رسمها[٣].

ولسوء الحظ لم يستفد علماء الجغرافيا من هذه الإرسالية سوى خلاصة وجيزة نشرها ميسن بك في جريدة بيترمان[٤] الجغرافية، فلم نعثر على تقرير في

---

(١) راجع خريطة الطريق من الأبيض إلى الفاشر، رسمها ماهر أفندي وفوزي أفندي بناء على أنباء الكولونيل بروت بمقياس $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$ وفيها خمسة مواقع فلكية والارتفاعات.
ـ خريطة الطريق من فوحة إلى الأُبيض التي رسمها بروت بمقياس $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$.

(٢) تقع «دنقله العجوز» جنوب «دنقله» بنحو ٢٥٠ كم (المحقق).

(٣) خريطة خط السير من دنقله العجوز إلى الفاشر عن طريق وادي محال إلى الكرنك رسمتها حملة الكولونيل بوردي بمقياس $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$ في سنة ١٢٩٢ هجرية، وهي محفوظة بأركان الحرب.

(٤) رسائل بيترمان الجغرافية بعنوان «أقدم دورية ألمانية في الجغرافيا»، أسسها الكارتوجرافي الألماني أوجست بيترمان وحملت من اسمه «رسائل بيترمان الجغرافية Petermanns Geographische Mitteilungen»، وظهرت في منتصف القرن التاسع عشر (المحقق).
السيرة الذاتية لبيترمان في أول تعليق، وفي التعليق الثاني خريطة إفريقيا التي جاءت في هذه الدورية بجودة فائقة.

هذا المعنى متكفِّل بإيضاح ما استكشفته الحملة، وقد ترتَّب عليها وصف هذه المملكة بغاية الدقة والاستيفاء[١].

على أننا إذا استعنّا بالخريطة العمومية لهذا الإقليم، المحفوظة بالجمعية الجغرافية الخديوية، وبجملة خرائط أخرى تفصيلية موجودة بأركان حرب؛ تيسَّر لنا أن نجزم بأن هذه الحملة قطعت طريقًا طوله (٦٥٠٠) كيلومتر واستكشفت كل ما مرَّت به في أثناء سيرها، وعيَّنت موقعًا فلكيًّا، وذلك غير الملاحظات التاريخية والجويّة العديدة التي اعتنى الدكتور بفوند بجمع متفرِّقها وضم شتاتها، وقد قضى هذا الرجل المقدام نحبه في أثناء الاستكشاف في اليوم الثاني والعشرين من أغسطس سنة (١٨٧٦) وترك مجموعة نباتية ومجموعة جيولوجية، وكلاهما محفوظ في الجمعية الجغرافية الخديوية[٢].

وهاك بيان الطرق التي رسمتها هذه الحملة:

* الميرالاي بوردي: من دنقله إلى الفاشر إلى حفرة النحاس[٣].

* الميرالاي ميسن: من الفاشر حوالي جبل ميدوب. ومن الفاشر إلى جبل مره وإلى الحدود الغربية للترجه. وطريق كيتكابيه غربي جبل مرّه من دارا إلى شكا والطويشة.

* الماجور بروت: ما حوالي جبل مرّه. وفي جهة الشمال عند قوم الزغاوة[٤].

---

(١) راجع الجزء الثامن من جريدة بيترمان الصادرة في سنة ١٨٨٠.

(٢) رحلة الدكتور بفوند في كردفان ودارفور.

(٣) راجع الرسالة على القطر الكائن بين داره وحفرة النحاس التي نشرها الكولونيل بوردي في جزء ٨ سنة أولى من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

(٤) خريطة جبل مره رسمها بروت بمقياس $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ وهي بأركان حرب.

* محمود صبري أفندي في الشمال بجانب تخوم دار تامة في فوجه[1].

* محمد سامي أفندي: شرقي الفاشر والطويشة والعودة منهما[2] [3].

إنشاء المسافرخانات (أي منازل الضيافة ومحاط الاستراحة)

وفي غضون هذه الاستكشافات اهتمَّت أجناد الجناب الخديوي بتوطيد دعائم الأمان وتأييد نظام السلام في جميع البلاد التي احتلتها والأقاليم التي افتتحتها، فهدأت الأحوال وانتظمت الأعمال وسارت على أكمل منوال، وكان قائد القوى العسكرية إذ ذاك إسماعيل أيوب باشا حكمدار عموم السودان، فأمَّن السبل بحيث كان يتيسَّر للسائحين أن يجوبوا أرجاء تلك البقاع ويطوفوا بأنحائها ويباشروا الاستطلاعات والاسكتشافات آمنين مطمئنين، وتسنى للقوافل أن تنقل المتاجر من غير ما خوف ولا اضطراب. وفوق ذلك أمر إسماعيل باشا أيوب بإنشاء جملة خانات في كثير من الجهات ليأوي إليها السائحون وتستريح

---

(١) خريطة شمالي دارفور من رسم محمود أفندي صبري وهي بأركان حرب.

(٢) راجع ما يلي:

ـ خريطة الفاشر لمحمد أفندي سامي باللغة العربية، وله أيضًا خريطة استكشاف البلاد التي في شرقي وادي الكوش مقياس ١/ ٤٨١٩٢٨.

ـ الخريطة الأصلية لإقليم دارفور، رسمها الجنرال بوردي باشا في سنة ١٨٧٨ بمقياس ٤ ملليمتر عن كل ميل جغرافي واحد، وهي بالجمعية الجغرافية، ولم تطبع. وللدكتور بفويد كتاب هذه ترجمة عنوانه «نبذة في علم الكون والفساد» مطبوع في مصر سنة ١٨٧٧.

(٣) قسمت دارفور عقيب احتلالها إلى أربع مديريات، وهي: الفاشر وداره وكلكل وشكا، ثم صار تنظيمها بعد ذلك فجعلت قسمين، وهما:

أولًا: داره، ويتبعها كلجا وكيربو وكتدجما ومنواشي وشكا.

ثانيًا: الفاشر، ويتبعه كون وجبل سي وجبل اربس وجبل دويون. وقد كانت بلدة أبو جورن آخر المحطات المصرية من جهة الغرب.

فيها القوافل، وقد تمَّ إنشاء هذه المحاط فيما بين البحر الأحمر والنيل السعيد ومن النيل إلى تخم ودّاي وفي إقليم دارفريت، على النحو التالي:

فيما بين سواكن وبربر:

هندوب[1] Handoub أوتانا Otana طنبوه Tambouh السبيل Essibil النبات El Nabat سلابات Salabat عبد الناب Abde-el-Nabb عريوط Ariot كوشجريب Kochgreb الباش El Bach أبوحوسه Abou Hossa ماكوب Makobbe.

فيما بين الخرطوم ودارفور:

الترعة الخضراء Toura El Khadra الهلبة El Helba أيد النبيق-Edd –el Nabek أبو شوكه Abou Choca أم دبوس Om Dabbous خرسي Koursi[2] فولا الكومباج Foula el Komach[3] الأُبيض Obeyd أبوحراس Abouharas أم لوبيه Omloubi الدوديه Doudichi شالوتا Schallouta فوجه Fodja[4].

افتتاح هرر

وبينما كان أركان حرب الجيش المصري في غربي البلاد يوسِّعون نطاق علم الجغرافيا بأعمالهم المتنوعة واستكشافاتهم المفيدة إذ فتحت الحكومة المصرية بلاد هرر، فكان في ذلك فتح أبواب القسم الشرقي من قارة إفريقيا للحضارة الحديثة والتمدُّن العصري.

---

(١) تقع هندوب شمال سواكن مباشرة، غير بعيد عن ساحل البحر (المحقق).

(٢) تقع في منتصف الطريق بين نيالا جنوبًا بشرق والجنينة شمالًا بغرب (المحقق).

(٣) في منتصف الطريق بين الأبيض شمالًا والمجلد جنوبًا، وتكتب اليوم على الخرائط الحديثة Fulah (المحقق).

(٤) هذا البيان بحسب ما أورد لنا ميسيد اليابك.

وبما أنه قد تمَّ تنازُل الباب العالي للحكومة المصرية في شهر يوليو سنة (١٨٧٥) عن زيلع شريطة أن تدفع له ضريبة سنوية في نظير ذلك مقدارها (١٣٣٦٥) جنيهًا مصريًّا؛ فقد أرسلت هذه الحكومة في شهر سبتمبر من تلك السنة حملة مصرية قامت من هذه المينا تؤمُّ داخل البلاد تحت قيادة رؤوف باشا.

وكانت هذه التجريدة مؤلفة من (٣٠٠) جمل وخمس أرط من المشاة المصريين و(٢٣٦) مقاتلًا من الباشيبوزق[١] ومدفعين جبليين وصواريخ حربية. ووصلت الحملة قبالة هرر في زمن وجيز. ولم يأت اليوم الحادي عشر من أكتوبر حتى خفق العلم المصري فوق قصر الأمير، وما زالت مصر قابضة على زمام الأحكام في هذه الأقطار وعساكرها محتلة لها حتى كان شهر مارس سنة (١٨٨٤) فتركتها وشأنها وأجْلت جنودها عنها.

واعلم أن سيادة مصر على تلك البلاد قد هدمت أسوار التعصب التي كانت مشيدة حولها، فانبعث فيها أنواع الحضارة وتسهَّلت سبل التجارة، وتيسَّرت أسباب الأخذ والعطاء، فنالت بذلك فوائد جمّة ومنافع كثيرة. وقد أماط الموسيو پوليتشك Paulitschke اللثام عن حقيقة هذا الموضوع ووفّاه ما يجب له من الشرح والبيان في النبذة التي نشرتها الجمعية الجغرافية الخديوية في إحدى مجموعاتها[٢].

---

(١) الباشيبوزق Bach-bou-zouchs: كلمة تركية تعني حرفيًّا «الفوضوي» وتشير إلى مجموعة من العساكر غير النظاميين في الجيش العثماني، وأغلبهم من الألبان والأكراد والشركس والأعراق الزنجية، اشتهروا بالقسوة والشدة وسوء السمعة بسبب سلوكيات النهب والسلب (المحقق).

(٢) الكلام على سيادة مصر في بلاد هرر هي نبذة من قلم الموسيو پوليتشك مدرجة في العدد الحادي عشر من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

ولا حاجة بنا للخوض في هذا المجال، وإنما نقتصر على القول بأن احتلال الجنود المصرية لبلاد هرر ترتَّب عليه حصول السهولة في وصف ودرس قطر من الأقطار كان مجهولًا بالكلية لدى علماء الجغرافيا.

وقد قام البكباشي محمد مختار أفندي[١] ـ من أحذق وأمهر شبان الضابطان ـ بفصل (قسم) ثالث أركان حرب بمباشرة الأعمال الجغرافية، فأتمَّ أبحاثًا كثيرة لها وقع خطير، فمنها تعيين جملة مواقع تعيينًا فلكيًّا، ووصف المسالك التي اخترقتها التجريدة، ورسم مدينة زيلع وضواحيها، ورسم مدينة هرر، ووصف هذه البلاد وقبائل الصومال؛ إذ اضطر للمرور فيما بينهم، وقد كتب تاريخ أمراء تلك المدينة المقدسة[٢] وجمع جملة مجموعات تتعلق بأحوال أولئك الأمم والقبائل. ولهذه المجموعات شأن عظيم عند جمهور العلماء[٣].

وقد أمر حضرة نادي باشا ـ أحد الحكمداريين الذين تولَّوا زمام الإدارة في هذ القطر ـ بإنشاء خرائط كثيرة الفوائد من حيث التفصيل، وإن كانت غير مستوفاة من حيث الضبط والصحة بالإجمال.

وفي أثناء احتلال هرر قُتل العلامة منزنجر Münzinger أشنع قتلة وهو على شواطئ بحيرة آوسا Aoussa، ولكن عزت أفندي الذي كان معه لم يبال بالخطر

---

(١) وهو الآن الفريق مختار باشا.

(٢) هي مدينة هرر؛ لأن أهلها يعتبرونها كذلك لكونها عاصمة بلادهم ووجهتهم في تجارتهم وأعمالهم.

(٣) راجع الكلام على بلاد هرر لمحمد أفندي مختار في الجزء الرابع من القسم الأول من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية، وقد رسم حضرته باتحاده مع عبد الله أفندي فوزي خريطة هرر بمقياس $\frac{١}{٧٠٩٢}$ وهي في المجموعة المذكورة، ورسما أيضًا خريطة زيلع وضواحيها. راجع أيضًا جريدة أركان حرب، الصادرة باللغة العربية في شهر سبتمبر سنة ١٨٧٦.

الذي أحدق به بسبب هذه الحادثة الفاجعة، بل استمات في إحياء العلم بشجاعة وإقدام لا نظير لهما حتى وفقه الله لرسم الطريق الذي تمَّ قطعه، وكانت مباشرته وإكماله للرسم في حين وقوع تلك الواقعة التي أهرقت فيها الدماء.

الكلام على غوردون

بينما كانت هذه الحوادث تجرُّ الضباط المصريين إلى التجوُّل من خليج عدن إلى ودّاي يحدوهم المجد والفخار وتخفق فوق رؤوسهم رايات الظفر والانتصار، وكان جماعة من نخبة الضباط يوسِّعون نطاق علم الجغرافيا ويفيدون أهله بتحقيقاتهم واشتغالهم بما يختصر بالبلدان التي افتتحتها مصر، فألحقتها بعالم الحضارة والمدنية؛ كان الجناب الخديوي المقدام حضرة إسماعيل باشا يجول بخاطره أمرٌ خطير ومشروع ذو بال، يدلُّ على نبالة قصده وتطلُّعه إلى إنجاز الأعمال الجليلة، وذلك أنه أراد أن يوالي إرسال التجريدات في البر والبحر، ويراعي في تنظيمها طرق الحذق والكياسة وحسن التدبير، بحيث يتيسَّر له بواسطتها أن يبرز إلى عالم الوجود ما كان يكنُّه ضميره من إيجاد دولة مصرية واسعة الأكناف بعيدة الأطراف قوية البطش، ويدخل السلطان تحت لوائها جميع الأراضي المجاورة لوادي النيل وللسواحل التي توصل إليه، وهذا هو المشروع الوحيد الذي يعود على مصر بضم جملة أملاك ومستعمرات كافية فتتكوّن لها الثروة والمنعة ونفوذ الكلمة وعلوّ الشأن، وهو المشروع الفريد الذي كان يترتب عليه إدخال الحضارة إلى ربوع هذا القسم من إفريقيا الشرقية، إذ إن تباين الأمم وتنوّع الأقاليم واختلاف الأقطار هو من أكبر العوائق في تحضير أهالي تلك الأصقاع وتمصير بلادهم.

هذا؛ ولم يترتَّب على صنيع السير صمويل بيكر عملٌ خطير ولا فائدة تذكر، فلم يكن سلطان مصر على تلك البلاد إلا ظاهريًّا لا حقيقة له في الواقع، والأمر نفسه

فإن الثلاثمائة رجل الذين كانوا قائمين بخفارة غندكرو والمائتين المتوليين حراسة فاتيكو لم يكونوا يجسرون على الابتعاد عن معاقلهم والتجوُّل في تلك البقاع مع إن عصابات أهل الجراءة من نخاسي الخرطوم كانت تقطعها من غير انقطاع.

فعزم الجناب الخديوي الإسماعيلي على تنظيم الأحوال ومعاودة ما شرع فيه السير صمويل بيكر، فقسم البلاد الجنوبية الي قسمين أوّلهما السودان الحقيقي[١] وآخر حدوده فاشوده من جهة الجنوب، وجعل هذه البلاد تحت إدارة إسماعيل أيوب باشا. والقسم الثاني هو أقاليم خط الاستواء وجعل إدارتها في يد غوردون (وهو من ميرالايات الجيش الإنجليزي واشتهر بما أتاه من جلائل الأعمال في بلاد الصين). وكانت هذه الأقاليم تشتمل على البلاد الخاضعة لمصر في جنوبي فاشوده وعلى البقاع التي كان في النية فتحها.

وقد أقلع غوردون من الخرطوم في اليوم الثامن من شهر فبراير سنة (١٨٧٤) ووصل غندكرو في (١٨ إبريل)، ثم عاد إلى ديار أوروبا في شهر أكتوبر سنة (١٨٧٦). وفي خلال هذه السنوات الثلاث تمكن هذا الميرالاي الباسل المقدام من بسط سطوة الحكومة الخديوية المصرية إلى بحيرة فكتوريا، وأفاد المعارف بتحقيقات وفوائد جديرة بالتنبيه، وهو أول من رسم خريطة لمجرى النيل من خط الاستواء إلى مدينة الخرطوم[٢].

---

(١) يقصد بالسودان الحقيقي Le Soudan Proprement: الأرض الأساسية التي تتألف منها دولة السودان، وهو مسمّى يعني الأرض الأصلية من غير الأطراف الهامشية أو الجزر والسواحل. وللمصطلح دلالات استعمارية في تغذية التقسيم والانفصال. وهناك في جغرافية مصر أيضًا هذا المصطلح «مصر الحقيقية» التي يقصد بها أرض الوادي والدلتا من غير سيناء وسواحل البحر الأحمر (المحقق).

(٢) خريطة النيل الأبيض من الخرطوم إلى بحيرة فيكتوريا رسمها غوردون من سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٧ بعلم الاستعلامات بنظارة الحربية في لوندره. راجع كتاب هيل على الكولونيل غوردون في أواسط إفريقيا.

وإليك بيان أهم الأعمال التي باشرها هذا الرجل:

أسَّس غوردون قبل أن يصل إلى غندكرو محطة دعاها بـ«التوفيقية» لضبط السفائن الموسوقة بالرقيق؛ فإن مثل تلك السفائن كانت تمرُّ أمام فاشوده وأصحابُها آمنون مطمئنون لا يداخلهم خوف ولا فزع، وأمر بتشغيل الأرقاء المعتوقين في حراثة الأرض والقيام بشؤون الفلاحة ليكونوا كمستعمرة زراعية تسعى في مناكب الأرض وتأكل من رزق الله.

ولما تحقَّق أن المقام بغندكرو ليس حائزًا لشرائط الصحة المطلوبة؛ أسَّس محطتي غابة شامبه وبور، ونقل مركز الحكومة إلى رجاف ومنها إلى اللادو[1].

وقد بعث غوردون برئيس أركان حربه وهو الميرالاي شاييه لونج في مأمورية إلى امتيزا ـ سلطان أوجندا العظيم الشأن ـ، فاغتنم الميرالاي هذه الفرصة لمعرفة مجرى النيل من بحيرة فكتوريا إلى أمرولي، ولقد أوصله حسن طالعه إلى اكتشاف بحيرة سمّاها بحيرة إبراهيم[2]، ثم إنه ساق جواد البحث وحثَّ ركاب الطلب لمعرفة البلاد الواقعة في غربي بحر الجبل في المكركة.

وكان أول استكشاف من هذا القبيل من (٢٤ فبراير إلى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤). وأما الثاني فمن نوفمبر سنة (١٨٧٤ إلى فبراير سنة ١٨٧٥)[3].

وفى هذا الوقت أيضًا تمكَّن الضابطان وتسن Watson وشبيندل Chippendall (وقد كانا بلغا غندكرو منذ أيام قلائل) من معرفة مجرى

---

(١) تقع «لادو» على الضفة اليمنى لنهر النيل إلى الشمال من غندكرو «جوبا حاليًّا» (المحقق).

(٢) بحيرة إبراهيم: هي بحيرة كيوجا على خرائط اليوم (المحقق).

(٣) انظر كتاب شاييه لونج، المطبوع في باريس الذي عنوانه «إفريقيا الوسطى»، وله نبذة عن الزنوج بإفريقيا الوسطى أدرجتها الجمعية الجغرافية الخديوية في العدد الثاني من القسم الأول من مجموعاتها. راجع أيضًا خريطة السير من اللادو إلى المكركة باللغة العربية، وهي محفوظة بالجمعية الجغرافية الخديوية.

النيل بالضبط، والتحقيق من الخرطوم إلى اللادو[١]، وعيَّنا خمسة مواقع. وفي شهر ديسمبر سنة (١٨٧٤) أتيح لهذين الضابطين أن يرصدا مرور كوكب الزهرة[٢]، فلما كانت سنة (١٨٧٥) صدر الإذن إليهما بنقل سفينة مفكوكة[٣] إلى بحيرة ألبرت بعد أن تيسَّر لهما استطلاع البلاد التي بين رجاف والدفليه[٤] (الإبراهيمية)، وقد أخذا على نفسيهما أن يشتغلا في أثناء رحلتهما بتحقيق مسير النهر من الدفليه إلى ماقنقو على بحيرة ألبرت، وثبت عندهما أنها متصلة بالنيل[٥].

وفي سنة (١٨٧٥) بعث غوردون بالموسيو أرنست لينان دو بلفون في مأمورية لدى امتيزا فاكتشف هذا الضابط المقدام نهرين يصبّان في النيل وهما نهر هرجوجو Hergogo ونهر كابولي Kabuli، وقد اكتشف أيضًا ترعة تخرج من بحيرة اكريوه Ukerewe قريبًا من تاوازاه Tavaza ثم تحقَّق من مجرى قسم

---

(١) راجع طبوغرافية النيل من الخرطوم إلى رجاف، للموسيو منستن، وهي مدرجة بجريدة الجمعية الجغرافية الخديوية الملوكية في لوندره.

(٢) راجع رحلة شيبندل فيما وراء شلالات النيل المدرجة بجريدة الجمعية الجغرافية الخديوية الملوكية في لوندره.

(٣) هذه السفن يستعملها السيَّاحون إذا صادفها بحيرة أو مجرى ماء في البر، وينقلونها على ظهور الجِمال مفكَّكة أجزاؤها، بحيث يمكن إعادتها لحالتها الأصلية واستعمالها عند الحاجة. وقد رأيت هذه اللفظة في كتاب ابن بطوطة. (المترجم).

(٤) تقع دفليه Dufile (التي سمِّيت آنذاك الإبراهيمية) على الضفة اليمنى للنيل، قبالة نمولي Nimuli الواقعة على الضفة اليسرى للنهر (المحقق).

(٥) انظر خريطة النيل من رجاف إلى الدفليه في الجزء الحادي عشر من جريدة بيترمان الصادرة في سنة ١٨٧٥.

عظيم من نيل سوميرست[١] فوق فاويره[٢] Foweira وفي (٢٢ أغسطس) شرب هذا البطل كأس الحِمام[٣] على مقربة من محطة موجي Muggi الكائنة على البحر الأبيض[٤].

وقد واظب غوردون على تنظيم البلاد وإصلاح شؤونها، فأسَّس محطتين في لابوريه Laboré[٥] والدفليه، وحصَّن المحطتين الموجودتين بفاتيكو Fatiko وفاويره[٦] Foweira.

وفي سنة (١٨٧٦) أمر باستكشاف بلاد أنيورو Unyoro[٧] واحتلالها، وأرسل الموسيو جسي والموسيو بيادجا يستكشفان مجرى النيل من ابتداء كروما Karouma[٨] لغاية بحيرة ألبرت.

---

(١) نيل سوميسرت: هو قسم من النيل الأعلى، اكتشفه بعض الإنجليز وسماه باسم أحد حكّام الهند الإنجليزية.

(٢) تقع فاويره على نيل فيكتوريا بعد خروجه من بحيرة كيوجا، وتوجد على الضفة اليسرى للنهر أعلى شلالات كاروما (المحقق).

(٣) شرب كأس الحِمَام: أي لقي حتفَه، إذ الحِمَامُ مرادف الموت، وقد جاء في النص الفرنسي etait tue بمعنى «قُتل» أو «لقي مصرعه». (المحقق).

(٤) انظر خط السير الذي رسمه لينان في أثناء ذهابه إلى امتيزا، وملحوظاته. وهو منشور بمجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية وبمقياس $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$. وانظر الخريطة التي رسمها شوينفرت وطبعها بالمجموعة المذكورة مبيِّنًا فيها خط السير المذكور بمقياس.

(٥) لابوريه: وتعرف عند أهالي تلك الجهات «جارنجا» (المترجم).

(٦) انظر كتاب غوردون في أقاليم خط الاستواء، وهو مطبوع بأركان حرب بمصر في سنة ١٨٧٧.

(٧) يطلق هذا الاسم (وتنطق محليًّا Bunyoro) على النطاق الواقع شرق بحيرة ألبرت (المحقق).

(٨) جنادل [جمع جندل: مكان في مجرى النهر فيه حجارة تشتد حولها سرعة التيار وتتعذر الملاحة] على نيل فيكتوريا بعد خروجه من بحيرة كيوجا (المحقق).

وكان جسي رجلًا أصيل الرأي دقيق الفكر تمكَّن بحزمه وعزمه من قمع ثورةٍ هبَّ لهيبها في فاشوده، فمنع وصول تيار العصيان إلى تجريدة غوردون والمديريات لئلا يترتب على ذلك انشقاق العصا وانحلال الأمر، وقد أوعز إليه غوردون أيضًا باستكشاف البحيرة فطاف حولها وكان أوّل من رسم خريطة لها[١]. وأما پيادجا فإنه صعد النيل من ابتداء ماقنقو واستكشف بحيرة كاپيكي ونهرًا يخرج منها ويجري إلى جهة الشمال[٢].

أما غوردون فقد اكتشف بنفسه نهر فويده في أمرولي M'rouli، وأنشأ محطات في علياب (لبلاد اللاتوكا) وفي كيري وفي ماقنقو وأمرولي وأرندجانه بالقرب من بحيرة فكتوريا، وهي آخر تخوم مصر من جهة الجنوب، وقد أسَّس أيضًا محطة أخرى في نصر Nasr الكائنة على نهر سوباط[٣].

وفي ذلك العصر كان إرسال التجريدة التي بعث بها إلى بلاد الصومالي بالقرب من مصب جوبا، وكانت هذه الحملة تحت قيادة ماك كيلوب باشا والكلولونيل لونج، ولم تكمل أعمال هذه التجريدة بسبب اللائحة العنيفة المعنى التي أرسلها اللورد دربي إلى الجناب الخديوي (يناير سنة ١٨٧٦).

---

(١) انظر رسالة جسي التي عنوانها «على بحيرة ألبرت» المدرجة بمجموعة الجمعية الجغرافية الطليانية في سنة ١٨٧٧. وانظر خريطة هذه البحيرة المرسومة في أركان حرب الجيش المصري بناء على مسودة رسمها جسي باليد.

(٢) انظر رسالة پيادجا التي نشرها بالعدد الثاني من القسم الرابع من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية وعنوانها «على نيل سومرست».

(٣) انظر التقرير على الأقاليم المصرية الذي نشره قلم الاستعلامات بنظارة الحربية في لوندره في سنة ١٨٨٤.

وكانت هذه التجريدة مركَّبة من بارجتين حربيتين، وهما وابور محمد علي ووابور لطيف، ووابوران نقالان وهما وابور طنطا ووابور دسوق، ومن ثمانية بلكات من المشاة (الرجالة)، ومن بلك واحد من الفرسان (الخيالة)، وآخر من الطوبجية (المدفعجية).

وقد أقلعت من السويس في يوم (١٧ فبراير سنة ١٨٧٥) ولما وصلت إلى مصب نهر جوبا؛ كان في العزم أن تتقدم في مسيرها إلى هذا النهر حتى تتلاقى مع غوردون؛ فإنه صدرت له الأوامر بالتوجُّه لمقابلتها.

نعم؛ إن هذا المشروع كان كأن لم يكن؛ إذ لم يتحقَّق له أثر في الخارج، ولكن الكولونيل لونج استكشف على زورق نجارى جميع البلاد الكائنة على ضفتي النهر في مسافة (١٥٠) ميلًا، وكذلك اليوزباشي حسن أفندي واصف الذي كان برفقته؛ فإنه رسم مجرى النهر.

ومن ذلك يتَّضح أن النتائج والفوائد الجغرافية التي أتت بها هذه الحملة هي تصحيح خريطة سواحل الصومالي واستكشاف فرضتَي[١] كسمايو Kismayo ودنفورد Dunford الكائنتين على شط الأوقيانوس الهندي، وسبر أعماقهما على يد الكولونيل ورد يعاونه في ذلك اليوزباشي صديق أفندي وغيره من ظابطان أركان حرب[٢].

وقد عرضت ملحوظات مهمّة على غوردون اضطرته إلى العدول عمّا نوى عليه من إلحاق أوجندا بالأملاك المصرية، واقتصر على إرسال أمين أفندي

---

(١) الفرضة: أي البلدة الرئيسة في الإقليم (المحقق).

(٢) هذا بحسب مذكرات وتعريفات بخط اليد أرسلها لونج إلى المؤلف. وانظر رسالة للكولونيل لونج بك نشرتها جمعية الجغرافية الأمريكانية في مجموعتها الصادرة سنة ١٨٧٨ وعنوانها «على نهر جوبا».

(الدكتور شنيتزر Schnitzer، أمين باشا المشهور حاليًّا) مبعوثًا من قبله إلى السلطان امتيازا ليعرب له عن نوايا غوردون في المحافظة على السلم ورغبته في توطيد الأمن، وأنه يعترف باستقلاله في بلاده، فسار أمين على خوركفو[١] ووجد طريقًا آخر توصل إلى البحيرة وهي طريق هذا الخور.

وبعد أن نظَّم غوردون ملاحة السفن البخارية على البحيرة سافر قاصدًا إنجلترا على إثر عودة وكيله إلى اللادو.

بيان الأعمال في مصر

بينما كان غوردون يثابر في البلاد الجنوبية على إنجاز أعماله ويرى مساعيه مقرونة بالنجاح متوَّجة بالفلاح ـ كما رأيت فيما تقدم من البيان ـ؛ كان القوم في الأقاليم الشمالية يباشرون أعمالًا ليست بأقل فائدة من أعمال غوردون من حيث توسيع نطاق الأعمال الجغرافية.

ففي سنة (١٨٧٤) شُرع في عمل ميزانية عمومية لمدينة القاهرة، وفي درس ما يلزم لقياس قاعدة في السهل الذي به الأهرام[٢] بمناسبة مرور كوكب الزهرة.

وفي (١٦ مايو سنة ١٨٧٥) صدر أمر عال بإنشاء جمعية جغرافية بمصر القاهرة، وتعطَّف عليها الجناب الخديوي المعظَّم بإعانة سنوية، وخصَّص لها دارًا مع ما يلزمها من الأثاث والكتب والمجموعات[٣].

---

(١) خوركفو: يعرف على الخرائط الحديثة باسم كيفو (المحقق).

(٢) انظر مؤلفات سعادة مختار باشا التي لم تطبع، وهي الأصول العلمية والعملية في قياس القواعد بالمسطرة المصرية، مختصر في أعمال التقويم.

(٣) راجع النبذة التي كتبها المؤلف في الكلام على الجمعية الجغرافية الخديوية.

وصدر الأمر بإرسال العالم بطبقات الأرض الموسيو متشل Pitalien الأمريكاني مع الموسيو إملياني Emiliani الطلياني لاستكشاف المعادن القديمة التي بالحمامات (وهي جهة كائنة بين مدينتي قنا والقصير) فإن بعضهم كان يرسل من هذه الجهة نموذجات من معادن الذهب لمعاينتها ببلاد أوروبا[١]، ثم صدر الأمر لذينك الرجلين بزيارة البلاد التي بين مصوع الحبشة إلى جورا Goura. وبعد ذلك ذهبا إلى تاجوره وإلى الشمال الغربي من زيلع، حيث كان بعضهم يتوهَّم وجود طبقات من معادن الفحم الحجري[٢].

وكان البكباشي محمد مختار أفندي يجول في بلاد الصومالي جاديبورسي[٣].

وكان الملازم أوّل عبد الرازق أفندي وكثير من ضباط أركان الحرب يرسمون أيضًا مينا بربره وضواحيها لغاية جبل دوبار، وكان الموسيو إنسور Ensor مكلَّفًا بتتميم البحث فيما يختصُّ بإنشاء سكة حديدية بين دنقله والفاشر[٤].

وكان الماجور دورهولز Durholz يستكشف البلاد الواقعة بين أسيوط وعين الهجين Ain- el- Aghïn والواحة الكبرى[٥]، ويرسم خريطة لها.

وكان الكولونيل فشت Fecht يرسم الطريق التي بين أسوان وأبوحمد.

---

(١) راجع رسالة متشل على معادن الذهب في الحمامات، المطبوعة في العدد السادس من القسم الأول من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

(٢) راجع كتاب متشل الذي عنوانه «سياحتي بالحبشة»، وهو مطبوع بأركان حرب في نصر سنة ١٨٧٨.

(٣) راجع النبذة التي كتبها الكولونيل مختار عن استكشافه في بلاد جاديبورسي، وهي مدرجة في العدد السابع من القسم الأول من مجموعة الجغرافية الخديوية.

(٤) راجع كتاب سدني آنسور الذي عنوانه «حوادث الرحلة في النوبة ودارفور».

(٥) تسمى الواحة الكبرى الآن «الواحات الخارجة» (المحقق).

وفي نهاية الأمر لما انتشبت الحرب بين مصر والحبشة اجتهد جماعة من ضباط أركان الحرب تحت رياسة الميرالاي لكت، فرسموا عددًا عظيمًا من الخرائط التفصيلية، ورسموا خريطة عمومية للبلاد الواقعة بين مصوع وهضبة الحبشة. ويعدُّ هذا العمل من أهم وأفضل ما اشتغلت به هذه العصابة[1] المنتخبة من حيث إنشاء الخرائط وبيان مواقع البلدان[2].

الكلام على حكمدارية غوردون لعموم السودان

وفي شهر فبراير سنة (١٨٧٧) استدعى الجناب الخديوي إسماعيل باشا غوردون مرة ثانية لخدمة الحكومة المصرية، فعلَّق غوردون قبوله على أن يكون حكمدارًا لعموم الأملاك المصرية، فأجيب طلبه وولي حينئذ زمام الأحكام في أقاليم السودان ومديريات خط الاستواء وأراضي البحر الأحمر وبلاد هرر. فبذل الرجل غاية جهده وأفرغ جعبة اجتهاده في القيام بأعباء هذا الأمر.

ولكنه تحقَّق عدم استطاعته الانفراد بإدارة تلك البلاد البعيدة المدى الشاسعة الأطراف؛ إذ رأى بعد الخبرة والممارسة أن استتباب السلم والأمان وانتظام أحوال العمران يستوجبان وجوده بنفسه في كل نقطة من تلك البلدان وفي آن واحد من الزمان، وهو أمر يفوق الطاقة البشرية، فلن يقدر عليه إنسان. فلما علم باستحالة ذلك عليه مهما كان مبلغ اجتهاده؛ اضطر لتخفيف الحمل عن عاتقه وتضييق دائرة إدارته ليكون صرفُ الهمّة أكثر نفعًا وأحكم صنعًا، وليظهر لأعماله أثرٌ في الوجود، فغادر حكومة هرر وتخلَّى عن إقليم أونيورو وترك محاط أورندوجاني وأمرولي وماسندي وكوزته وفاويره، وجعل حدود مصر من جهة الجنوب عند شواطئ نيل سمرست فقط.

---

(١) العصابة: مرادف فصيح لكلمة «عصبة» أو «جماعة» (المحقق).

(٢) انظر الرسالة التي كتبها ستون على البلاد الكائنة بين ساحل البحر وهضبة الحبشة، ونشرها في الجزء التاسع من القسم الأوّل من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

ثم قسم المديريات الاستوائية إلى قسمين، دعا الأوّل منهما مديرية خط الاستواء، وجعل بندرها مدينة اللادو وعهد بإدارتها إلى أمين أفندي (الدكتور شنيتزر) ولقبه مديرًا. وجعل جسي على ولاية القسم الثاني، وهو مديرية بحر الغزال.

فاجتهد جسي هذا حتى توصل إلى استكشاف جميع الأراضي الكائنة في مديريته، وأظهر الشدة والصرامة في اقتفاء أثر النخاسين وألحَّ في طلبهم بكلِّ مكان منعًا لهم عن مباشرة تجارتهم الممقوتة، ثم جعل زرائب الجلابين محاط تابعة للحكومة، وعوَّد الأهلين على المعيشة العسكرية، وتودَّد إليهم كثيرًا فأحبَّه جمهورهم وأخلصوا في ولائه. وبنى القناطر على الأنهار ومجاري المياه، وساعد القوم على مدِّ المراكب وإنشاء السفائن، فهال أمره الجلابون وأرادوا أن ينزعوا نير سطوته فتجمَّعوا تحت رياسة سليمان بن الزبير لمقاتلته وخلع طاعته، فحاربهم بالعنف وسامهم الذل والخسف، واستعمل في ذلك بسالة وحزمًا قلَّ أن يكون لهما نظيرٌ بحيث أن إخضاعهم يعدُّ من أفخر الحوادث التي يتحلَّى بها تاريخ مصر الحديث[1].

على أن غوردون ما زال يواظب على استكشافاته الجغرافية، فقد أرسل الميرالاي ميسن في عام (١٨٧٧) لرسم بحيرة ألبرت مرة ثانية[2]، واهتمَّ هو بتقليل المسافات لتسهيل المواصلات، فأخذ يدرس بكلِّ جدٍّ واجتهاد مشروعًا

---

(١) انظر كتاب الكولونيل غوردون في إفريقيا الوسطى وحرب جسي.

(٢) انظر خريطة ميسن للنيل من الدفليه إلى ماقنقو التي طبعها أركان حرب في شهر يوليو سنة ١٨٧٧. وانظر أيضًا خريطته لبحيرة ألبرت ومقياسها $\frac{1}{36000}$ وقد طبعت في أركان حرب أيضًا. وانظر رسالته التي كتبها في الكلام على زيادة بحيرة ألبرت وقد أدرجتها الجمعية الجغرافية الخديوية في العدد الخامس من القسم الأول.

من مقتضاه ترتُّب سير المواكب في البحر وعربات التراموای في البر حتى لا تكون شلالات السودان عقبة قائمة في طريق الملاحة والأسفار.

ولما كان شهر يوليو سنة (١٨٧٩) حضر غوردون إلى القاهرة ثم قصد بلاد الحبشة مبعوثًا في مأمورية إلى النجاشي، وحينما عاد منها قدَّم استعفاءه نهائيًا، وذهب إلى بلاد الإنجليز[١].

آخر الإرساليات

وبينما كانت هذه الحوادث تتوالى في بلاد السودان؛ أرسل الجناب الخديوي المستر بريتن لاستكشاف المعادن القديمة الكائنة بمدين في خليج العقبة، فسافرت أوّل إرسالية في (٢ إبريل سنة ١٨٧٧) وعادت في (٢٠) منه، ثم توجَّهت إرسالية أخرى (من ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٧ إلى ١٢ إبريل سنة ١٨٧٨)، وبذلت العناية الحقّة في درس تلك البلاد، وجمعت عشرين طونولاته من المعدن الخام، ووجَّهت بهذه الكمية إلى إنجلترا لتحليلها.

وقد رافق بريتن في هذه الإرساليات الثانية المهندس ماري والرسام لاكاز، فعادا ومعهما مجموعة جيولوجية مهمّة جدًّا عرضاها في معرض باريس، وقد صور لاكاز بيده المناظر التي مرَّ عليها والمشاهد التي وقف بجانبها، ورسم صورًا كثيرة بالألوان. أما بريتن نفسه فقد جمع مجموعة تختصُّ بعلم الآثار القديمة وبعلم أحوال الأمم وفيها نقوش وكتابات نبطية وطواحين كان يستعملها الأقدمون لطحن حجر الصوان[٢].

---

(١) انظر العدد الثالث من القسم الثالث من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية، تجد فيه نبذة عن غوردون والنجاشي.

(٢) انظر خط السير الذي اتَّبعه بريتن في الإرسالية الثانية إلى مدين، والخريطة من العقبة إلى المويلح (وهي بأركان حرب)، وخريطة الإرسالية إلى مدين (بأركان حرب أيضًا).

وفي سنة (١٨٧٨) اضطرب الخديوي إسماعيل باشا من الحوادث والمصائب البحرية التي كان وقوعها يكاد يتوالى بلا انقطاع على سواحل رأس غاردفوري، فأرسل تجريدة دعيت بتجريدة المروءة والإنسانية، ولعمر الحق إنه اسمٌ طابق معناه مسمّاه وأصاب واضعوه كلَّ الإصابة؛ فقد كان رجال هذه التجريدة مكلَّفين بالبحث عن أوفق المواقع لإنشاء فنار [مصباح قوي الضوء يُنصب على سارية عالية لإرشاد السفن] في تلك الأصقاع، وكان الكولونيل جراف[١] Graves على رأس هذه الحملة ومعه البكباشي مختار أفندي مكلَّفًا بدرس ما يختصُّ بالطبوغرافية وأحوال الأمم، فنال علماء الجغرافيا من هذا الاستكشاف العلمي فوائد كثيرة تضمنها جراف[٢] وخلاصة عن أهالي الصومالي وخرائط متنوعة[٣].

(١) انظر النبذة التي كتبها جراف عن رأس غاردفوري ومسألة الفنار، وقد نشرتها الجمعية الجغرافية الخديوية في العددين التاسع والعاشر من القسم الأول.

(٢) انظر ما كتبه جراف عن بلاد مجرتين في العدد السادس من القسم الأول.

(٣) انظر الخريطة التي رسمها البكباشي مختار لرأس غاردفوي بمقياس $\frac{١}{٤٠٠٠٠}$. وانظر خريطة وادي توهين وخريطة (هوند) و(بنا).

حكم مولانا الخديوي الأعظم
ولِيِّ النِّعم الأكرم
المرحوم[1] محمد توفيق باشا الأفخم[2]

السنوات الأولى

ابتدأ حكم هذا الأمير الجليل وقد ألَّت بالبلاد مصائب سياسية ومشاغب دولية ومشاغل أهلية بما لم يسبق له مثال فيما مضى من الأجيال، حتى إن هذه الطوارئ والطوارق التي لم يعتدها الناس حوَّلت الأفكار وصرفت الهمم عن السير في جادة السلام والأمان، ألا وهي جادّة البحث والدرس والعرفان. ومع حدوث هذه الارتباكات التي لا يترتَّب عليها تقدُّم العلم ولا تساعد على تعضيد أهليه؛ تمَّ بهذا القطر السعيد جملةُ أعمال في غاية الأهمية والفائدة. ولا غرو؛ فإن عناية هذا الأمير رحمه الله بكلِّ ما يؤول إلى تقدم الأفكار وترقية المعارف في هذه الديار تطلق لساننا بالقول بأن حكمه سيترتَّب عليه إن شاء الله فوائدُ جمّة يصيبها علماء الجغرافيا، فيتسع نطاق هذا العلم على عهده، كما درَّت فوائده وغزرت موارده وكثرت ثمراته في أيام الذين سلفوه على أريكة الخديوية المصرية.

---

(١) صدرت النسخة الفرنسية من الكتاب الحالي في عام ١٨٨٩ حين كان الخديوي توفيق في سدّة الحكم، ومن ثَم لم يرد وصفه بـ «المرحوم» إلا في الترجمة العربية التي صدرت بعد صدور النسخة الفرنسية بثلاث سنوات. هذا وقد توفي الخديوي توفيق في ٧ يناير ١٨٩٢ وخلفه على الحكم ابنه عباس حلمي الثاني، الذي بقي في الحكم من ٨ يناير ١٨٩٢ وحتى ١٩ ديسمبر ١٩١٤ (المحقق).

(٢) جلس على الأريكة الخديوية الجليلة في ٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩.

ونحن نورد عليك الآن خلاصةً إجمالية عن الأعمال التي كملت في هذه السنين الأخيرة، فنقول:

في سنة (١٨٨٠) كان الميرالاي مختار بك يباشر استكشافًا بالسودان الشرقي (الخرطوم وقضارف وجلبات وعطبره والتومت وكسلا وقوزرجب وبربر) وعيَّن فيه جملة مواقع بواسطة الأرصاد الفلكية، وعاد من تلك السياحة وقد ملأ وطابه بأخبار متعلِّقة بأحوال تلك الأمم وطبائعها[١].

وفي خلال تلك السنة أيضًا كان جماعة من الضباط الوطنيين يستكشفون التُّخوم الشمالية ببلاد الحبشة بأمر سعادة راشد باشا وقد رسموا خريطة تلك الجهات[٢]، وسافر صادق بك مع المحمل الشريف إلى مكة المكرمة بصفة أمين للصرّة [الجماعة] وقد رسم خريطة الدروب التي يسير المحمل فيها ميمِّمًا شطر المسجد الحرام وقد رسم بالفوتوغرافية صور جملة من المشاهد والمعاهد المهمّة التي بهذه الأقطار المباركة، وهذه الصور هي أول ما ناله الناس والعلماء عن هذه البقاع، ولذلك نال صاحبها وسامًا ذهبيًّا من معرض الجغرافيا الذي انعقد بمدينة فينيسيا (البندقية). وفضلًا عن ذلك؛ فإنه وضع رسالة أتى فيها على وصف ما شاهده من الآثار والرسوم وصفًا مفيدًا يهمُّ العموم، وختم هذه

---

(١) راجع النبذة التي كتبها مختار بك عن السودان الشرقي في العدد الحادي عشر من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

(٢) خريطة الاستكشافات العسكرية التي حصلت على تخوم الحبشة من الشمال، وكان البدء فيها بأمر سعادة راشد باشا قومندان الحدود في ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٠ على يد الضباط الآتية أسماؤهم: البكباشي محمد أفندي، عزت ومصطفى أفندي، رمزي ومحرم أفندي، شوقي وعلي أفندي، زكائي، وحسن أفندي السبكي، وعبد السلام أفندي زكي. وتمت في أواخر سنة ١٨٨١، والخريطة مطبوعة بالمطبعة الأهلية في بولاق في ثلاث صحائف وباللغة العربية.

الرسالة بتبيُّن وجه الأرجحيّة والفائدة في نقل المحمل الشريف عن طريق البحر، فحاز رأيه هذا قبولًا وصار متَّبعًا من ذلك العهد[١].

وكان أمين بك في مديريات خط الاستواء يجوب البلاد التي تتوضع شرقي بحر الجبل، وقد أسَّس جملة محاط في بلاد اللاتوكا[٢]، وفي أثناء ذلك كان جاريًا إلحاق بلاد نيام نيام[٣] بالحكومة المصرية، وكان رفائيل وعلي جوبيه يبسطان نفوذ الحكومة الخديوية لحدِّ بلاد الويل[٤] Ouelle، وكان لويتن وأمين يواصلان الاستكشاف شرقًا وغربًا في مديرياتهما حتى إنهما أكثرا في المعلومات الجغرافية عن هذه الأقطار.

---

(١) انظر ما كتبه صادق بك (وهو الآن صادق باشا) عن الرحلة إلى مكة في العدد الثاني عشر من القسم الأول من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية. وله كلام عن المدينة المنورة منذ عشرين سنة، أدرجته الجمعية في العددين التاسع والعاشر من القسم الأول من مجموعتها المذكورة. وله كتاب «مشعل المحمل» طبعه في مصر باللغة العربية في سنة ١٢٩٨ هجرية/ ١٨٨١ ميلادية، وفيه صور بالفوتوغرافية وخريطة الطريق من القاهرة إلى مكة المشرفة والمدينة المنورة في البادية ذهابًا وإيابًا. وله أيضًا كتاب «كوكب الحج» طبعه باللغة العربية في سنة ١٣٠٣. وله خريطة الطريق إلى مكة والمدينة المنورة، وخريطة الطريق من جدة إلى مكة. وله خريطة الطريق من الوجه إلى المدينة المنورة ومن المدينة المنورة إلى ينبع، مطبوعة بأركان حرب في سنة ١٢٨٤.

(٢) اللاتوكا: تقع إلى الشرق من نمولي في جنوب شرق السودان (المحقق).

(٣) نيام نيام Niyam-Niyam أو Niam-Niam: هو الاسم الذي يطلق على جنوب غرب السودان وأجزاء من إفريقيا الوسطى التي يعيش فيها الزاندي (المحقق).

(٤) انظر كتاب بختا الذي سبق الإشارة إليه، وانظر خريطته الملحقة بالكتاب المذكور لمعرفة الأملاك المصرية لغاية هذه الأزمان الأخيرة. وانظر أيضًا خريطة المؤلف في العدد الثاني عشر من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

وكان الجنرال ستون يباشر في القاهرة بإدارة عموم أركان حرب رسمَ خريطة كبيرة شاملة للأملاك المصرية $\frac{1}{1000000}$، وكان الغرض من إنشاء هذه الخريطة جمع النتائج المتحصلة في مدى ثماني عشرة سنة انقضت كلُّها في الفتوحات والاستكشافات والمباحثات والمراجعات[١]. وقد كتب الجنرال ستون ما تعريبه:

«إن مسطَّح الأرض الذي قامت به تلك الأعمال يعادل مجموع مسطَّح فرنسا ومملكة ألمانيا ومملكة النمسا، وقد قضت هذه الأعمال على حياة ضابط وعالم ألمانيين واثنين من الفرنسية ومثلهما من الأمريكان ومثلهما من الطليان ومثلهما من المصريين، وكلّهم وردوا حياض المنايا وهم سالكون سبيل العلم والمعارف، فبذلوا حياتهم الطيِّبة في هذا السبيل الجليل، هذا غير من اخترمتهم المنون[٢] من كثير من الجنود البواسل، الذين كانوا مرافقين للضباط وأهل الريادة؛ فإنهم صادفوا حتفهم في هذه البلاد المجهولة. وليس ذلك قاصرًا على الجنود الذين ذهبوا في جملة الحملات الحربية، بل الذين صحبوا الإرساليات العلمية المحضة أيضًا».

وكانت مصلحة التلغرافات تباشر في تلك الأوقات رسم خريطة عمومية للخطوط التلغرافية، ومَن نظر إلى هذه الخريطة رأى التلغراف المصري وهو يخترق الآفاق من القاهرة إلى أقاصي درافور، ومن الخرطوم إلى مصوع[٣].

---

(١) نقلت هذه الخريطة إلى الخرطوم وفقدت عند سقوط هذه المدينة في قبضة المهدويين.

(٢) اخترم: أي أباد وأفنى، والمنون: الموت (المحقق).

(٣) انظر خريطة التلغراف المصري التي رسمتها إدارة العموم في لوندره سنة ١٨٨١.

وفي سنة (١٨٨١) صدر الأمر إلى الجمعية الجغرافية الخديوية بأن تنوب عن البلاد المصرية في مؤتمر الجغرافية والمعرض الدولي الجغرافي اللَّذين انعقدا بمدينة البندقية[١] (فينيسيا).

نعم؛ إن ما عرضته البلاد المصرية حينئذ لم يكن من الأهمية بمثابة ما عرضته في سنة (١٨٦٧) لأنها اقتصرت على ما يختص بالجغرافيا، ولكنها نالت نجاحًا فائقًا وذكرًا حميدًا، وكان الذي قام بتنظيم القسم المصري هو حضرة الدكتور بنولا بك السكرتير العام للجمعية الجغرافية (وهو مؤلِّف هذا الكتاب)، وقد منح هذا القسم ثماني مكافآت، ومن جملتها شهادة التمييز الكبرى في نظير رسم خريطة أركان حرب التي سبق الكلام عليها. أما المجاميع الثمينة التي تحصل عليها جسي باشا فلم يكن لها في بابها مثيل، ولذلك أعلن القوم بأنها فائقة عن الأشباه والنظائر[٢].

وأما قلم الإحصاء الذي أسَّس في سنة (١٨٧٦) فقد باشر أمورًا مهمّة ونشر أعمالًا مفيدة جمّة، ففي سنة (١٨٨١) صدر الأمر إلى أميشي بك[٣] Amici مدير عموم الإحصاء بإعداد ما يلزم من الأعمال والوسائط لتعداد جميع سكان القطر في مايو سنة (١٨٨٢)، وقد باشر في العمل على أسلوب قويم قرن بالنجاح مع

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف على مواضيع المذاكرة والمباحثة في مؤتمر الجغرافية الدولي بفينيسيا، وهي نبذة مدرجة في العدد الثالث من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

(٢) انظر التقارير المدرجة في العددين الأول والثاني من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

(٣) انظر ما صنفه أميشي بك على الإحصاء العام في الديار المصرية، وإحصاء التجارة الخارجية والإحصاء الخاص بالملاحة، وكلها رسائل مطبوعة بالقاهرة في مطبعة أركان حرب.

ما كان واقعًا وقتئذ من المصاعب التي نشأت بسبب الحوادث السياسية في ذلك الوقت.

وبعد ذلك تمكَّن حضرة بوانيه بك من نشر مجلدين عن هذا التعداد، وعسى يقوم من يتمِّم هذا العمل ويكمل هذا الصنع الجليل[1].

الكلام على ما حصل في هذه الأزمان الأخيرة

إن الحوادث السياسية التي أشرتُ إليها قبيل هذا هي قيام المهدي وأتباعه وثورة عرابي وأشياعه؛ فقد نشأ عنهما اختلال النظام واستكمال الفوضى وتداخل اليد الأجنبية في هذه البلاد.

وليس لنا أن نخوض الآن في شرح هذه الحوادث، أو نطلق العنان لليراع في بيان هذه الكوارث؛ فإن ذلك ممّا لا علاقة له بموضوع هذا المختصر، ولكن يلزمنا لأن ننبِّه في هذا المقام إلى أن المهدي لما شقَّ عصا الطاعة ورفع لواء العصيان[2]؛ اضطرت مصر للتخلي عن كامل أملاكها وملحقاتها التي بالسودان وعلى سواحل البحار الشرقية، وبهذا ذهب في بضعة شهور ما تمَّ عمله في ستين سنة، كما أن الأقاليم التي كانت مفتوحة للسياحة تسير فيها السابلة بكلِّ أمان واطمئنان أقفلت أبوابها ومنعت الناس من ورودها، بحيث إن مصر مع ما بذلته من جليل الهمّة وصادق الخدمة في إدخال الحضارة والتقدُّم إلى ربوع إفريقيا رأت نفسها محرومةً من الفوائد الحقّة والمزايا الشرعية التي كانت تنتظرها من عملٍ صرفت فيه نفيس الأموال وبذلت لأجله نفوس الرجال.

---

(١) انظر الجزء الأول والثاني من الكشاف أو التعداد العام لأهالي القطر المصري.

(٢) انظر الكتاب الذي ألَّفه بختا عن المهدي السوداني وحكمه.

فلما سقطت الخرطوم في (٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) ذهبت تلك الهمّة والحمية اللَّتان قامتا بالبلاد المصرية في السعي لتقديم العلوم الجغرافية، ولم يكن ثمة سوى أمين بك؛ فإنه تمكَّن من إبقاء أقاليم خط الاستواء خاضعة للراية المصرية.

على أن هذا الدكتور المقدام لم تثنه المصاعب المدلهمّة والمتاعب الملمّة عن صرف واجب الهمّة إلى تقديم العلم والمعارف؛ فإنه ما زال يستكشف البلاد التي هو حاكم عليها يعاونه في ذلك اليوزباشي كازلتي؛ لما رأى فيه من رجل شديد البأس كثير الكياسة، وقد سافر أمين بك (وهو الآن أمين باشا) إلى بحيرة ألبرت ورحل إلى إقليم الويل وأفاد العلماء فوائد لا تحصى[١].

ثم جاء يونكر واستغاث بصوت ملهوف واستصرخ الناس لنجدة أمين باشا ووصف ما يعانيه من الشدائد وما يقاسيه من الأتعاب، فانفعلت لذلك النفوس واضطربت القلوب، وتشكلت حملة لإنقاذه وسارت تحت رياسة استانلي. أما مصر فقد عاونت أيضًا على إتمام هذه الحملة الخطيرة الشهيرة بكمية عظيمة من الأموال والرجال، وكان لها نصيب وافر من الفضل في حصول الاستكشافات التي يكون استانلي قد توصل إليها في إقليم من إفريقيا كانت خرائط السنة الماضية ترسمه مجهولًا لا يعلم منه شيء بالكلية.

ثم لما توطَّد النظام وتثبتت دعائمه في أقاليم الشمال؛ عاد القوم إلى الاجتهاد في الأعمال الخاصة بالعلم الذي نشتغل به نحن ونهتمُّ بشؤونه، ولكن دائرة أعمالهم صارت أقل مما كانت في الزمن الذي مضى.

---

(١) انظر كتاب أمين باشا الذي عنوانه «مجموعة الرسائل والمخاطبات» وهو مطبوع في ليبسك عام ١٨٨٨. وكان أمين قد زار بحر الجبل وبلاد اللاتوكا من سنة ١٨٧٦ إلى ١٨٧٩، وزار في عام ١٨٨١ قسمَي اللادو ورحل Rohl. وفي سنة ١٨٨٢ بلاد المكركة Makaraka وفي سنة ١٨٨٣ قوم مانجبيتو Mangbetto.

وقد اشتغلت الجمعية الجغرافية بنوع خصوصي بجمع ما استطاعت جمعه من الأوراق والآثار التي يستنبط منها تاريخ الاستكشافات الحربية العديدة التي تكلَّمنا عليها فيما سبق، وغايتها أن تجعل هذه الآثار عدّة للمعارف وذخيرة للتاريخ، يرجع إليها أهلها في زمن من الأزمان.

وبعد أن انتهت الثورة العرابية عادت مصلحة التاريع[١] إلى أعمالها، وقد كان الجنرال ستون نظم شؤونها في سنة (١٨٧٦) ولكن كثيرًا من مستخدمي هذه المصلحة قتلوا في الأرياف في أثناء الثورة. وعندما ألغيت هذه المصلحة في سنة (١٨٨٩) كانت قد مسحت في مديريات الفيوم والقليوبية والبحيرة والمنوفية والغربية (٦٢٧) بلدًا بلغ مجموع مسطَّحها (١١٤٢٢٨٦) فدّانًا، ونشرت خرائط ثمانية مراكز من مراكز المديريات[٢].

خرائط المدائن

في سنة (١٨٤٥) رسمت خريطة لمدينة القاهرة، وفي سنة (١٨٦٣) رسم لها محمود بك الفلكي خريطة أخرى بمقياس أكبر من مقياس الأولى، وفي سنة (١٨٧٤) رسم الموسيو جران مدير التنظيم خريطة ثالثة[٣] بمقياس $\frac{١}{٤٠٠٠}$. وبعد ذلك صدرت الأوامر لمصلحة التنظيم برسم خرائط لجميع مدائن القطر المصري، وقد تمَّ الآن منها خريطة السويس وبنها وطنطا والإسكندرية وبورسعيد[٤].

---

(١) التاريع (بدون همزة): قياس الأراضي مساحيًّا وحصرها تمهيدًا لإدارتها وفرض الضرائب عليها. (المحقق).

(٢) انظر تقارير ميسن بك السنوية على مصلحة التاريع، وهي مطبوعة بالمطبعة الأهلية بمصر. وانظر أيضًا في الملحقات بيان الخرائط المرسومة.

(٣) انظر هذه الخريطة، وهي مطبوعة في باريس عند الموسيو لومر سييه.

(٤) انظر الملحقات.

وقد صدر أمر مصلحة الري بإنشاء خريطة للوجه القبلي والعمل جارٍ فيها حتى الآن، بل قد تمَّ منها رسم قسم جرجا بمقياس $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ وأما قسم قنا فهو على وشك التمام.

وقد أمرت مصلحة الدومين[١] المسيو دلافيت باشمهندسها برسم خريطة جديدة للوجه البحري مؤسسة على تحقيقات حديثة[٢]. وفوق هذا فقد سبق لها إنشاء خرائط المساحة التي قدَّمتها في معرض فينيسيا.

وقد أرسلت مصلحة التلغرافات الموسيو فلور في مأمورية إلى الصحراء الشرقية فقدَّم لها تقارير وخرائط هي من الأهمية والفائدة بمكان مكين[٣].

وقد كتب الموسيو متشل ـ العالم بطبقات الأرض، الذي عهد إليه إدارة الأعمال للبحث عن البترول (زيت الحجر المعروف عند العامة بـ «الغاز») في جبل الزيت على البحر الأحمر ـ تقريرًا جليلًا ضمَّنه خلاصة أبحاثه عن المعادن في الأرض والطبوغرافيا[٤]، وقد كان الموسيو باروا ـ المدير بنظارة الأشغال العمومية ـ قد درس هذا الموضوع من قبل[٥].

---

(١) مصلحة الدومين Les Domaines de l'Etat أو مصلحة الأملاك العامة للدولة (المحقق).

(٢) انظر خريطة الوجه البحري التي أمر برسمها قومسيون الأراضي الأميرية الدومين بمقياس $\frac{١}{٤٠٠٠٠٠}$ وطبعت في باريس.

(٣) انظر الخريطة التي رسمها الموسيو فلور، وطبعت في سنة ١٨٨٦. وله أيضًا خريطة لطريقين في الصحراء الشرقية بمصر نشرت في كراسة نوفمبر سنة ١٨٨٧ المتضمنة أعمال الجمعية الجغرافية في لوندره.

(٤) انظر كتاب ميشيل الذي عنوانه «رأس جمصه» وفيه خريطة، وهو مطبوع في سنة ١٨٨٨.

(٥) انظر ما كتبه باروا في مجموعة جمعية المعارف المصرية عن زيارة جبل الزيت.

وأخيرًا لما جاء الموسيو كوپ ويت هوس[1] وفرض ما فرضه أدَّى ذلك إلى أبحاث خصوصية زادت بها المعلومات الطبوغرافية عن هذه البلاد التي تقلُّنا أرضها وتظلُّنا سماؤها. وتحرير الخبر أن الموسيو ويت هوس لما زار إقليم الفيوم وتحقَّق على زعمه من أن وادي الريان إنما هو بحيرة موريس القديمة؛ اقترح إعادة إنشاء الخزان العظيم الذي زعم أنه كان يعود على مزارعي مصر بأجلِّ المغانم والمكاسب في أزمان الفراعنة الأقدمين، فكانت نتيجة هذه الاقتراحات وما ترتَّب عليها من المناقشات والمجادلات في الجمعية الجغرافية الخديوية أن بعثت نظارة الأشغال العمومية بمهندسين إلى تلك الأماكن لمباشرة الأبحاث والتحقيقات الجيولوجية وعمل الموازين والرسوم اللازمة[2].

ومن الأعمال الخليقة باستلفات الأنظار التي يجدَّد ذكرها في هذا المقام الخرائط التي رسمها أركان حرب على الحدود الجديدة في هذه الأيام.

هذا وقد أُلغي قلم عموم الإحصاء، ولكن الأعمال المختصّة به لم تبطل بالمرة؛ فإن مصلحة الكمارك بالإسكندرية مواظبة على نشر جداول إحصائية لحركة الإتجار مع البلاد الأجنبية والقائم بتحرير هذه الجداول هو الموسيو راندوني، وكذلك مصلحة عموم الصحة؛ فإنها تنشر في كل أسبوع بواسطة الدكتور آنجل خلاصةً عن الحالة الجويّة والصحيّة ومثلهما مستشاريّة الماليّة؛ فإنها تنشر

---

(١) انظر العدد الثالث من القسم الثاني من مجموعة الجمعية الجغرافية الخديوية.

(٢) انظر الخريطة الأصلية لوادي الريان التي بمقياس $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$ المرسومة في نظارة الأشغال العمومية. وانظر مذكرة الموسيو سكوت منكريف على مشروع وادي الريان، المطبوعة في سنة ١٨٨٩ بمصر. وانظر المذكرة على وادي الريان التي كتبها البيرنو روسورنوسكوت منكريف، وفيها خريطة بمقياس $\frac{١}{٥٠٠٠٠٠}$. وانظر أيضًا خريطة لوادي الريان، مطبوعة على الحجر بمقياس $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$.

إحصائية زراعية يقوم بشؤونها الموسيو بوانيه بك بنوع خصوصي، ومما يستحقُّ مزيد الالتفات بالنظر إلى الجغرافية التجارية[١].

أعمال الري العظيمة وإنشاء الخطوط الحديديّة المصمَّم على إنشائها أو التي شُرع فيها

وبالجملة فإن نظارة المعارف العمومية تنشر أيضًا جدولًا شهريًّا ببيان الحالة الجويّة يباشر تحريره في الرصد خانة الخديوية بالعباسية.

ومن الكتب التي ألَّفها المصريون ونشرت في هذه الأيام نذكر كتاب «الخطط التوفيقية الجديدة» لصاحب السعادة علي مبارك باشا ناظر المعارف العمومية، و«قاموس الكتب» الذي ألَّفه صاحب الدولة البرنس إبراهيم حلمي باشا وضمَّنه فوائد جمّة عن كتب الجغرافيا العربية[٢].

(١) انظر تقرير الري والمذكرات على فيضان النيل.

(٢) انظر كتاب صاحب الدولة البرنس إبراهيم حلمي باشا على الكتب المتعلِّقة بمصر والسودان، وهو باللغة الإنجليزية ومطبوع في لوندره سنة ١٨٨٦.

الخاتمة

نلخِّص في هذا الفصل ما حصل من التقدُّم للعلوم الجغرافية على يد الحكومة المصرية في عهد العائلة المحمدية العلوية.

الجغرافية الرياضية ـ الچيودوسية

* تحديد جملة مواقع متعددة بواسطة الأرصاد الفلكيّة، وتلك المواقع كائنة في الدلتا وعلى النيل لغاية بحيرة ألبرت وفي بلاد النوبة وكردفان ودارفور وعلى سواحل البحر الأحمر وفي هرر وعلى النيل الأزرق.

* عمل سلسلة مثلثيّة لإجراء المساحة في الدلتا والفيوم وكردفان.

* أشغال في السهل المجاور للأهرام لقياس قاعدة لعمل السلسلة المثلثية.

* أعمال ميزانية في الفيوم والدلتا وبرزخ السويس.

* أرصاد فلكية حقيقية في دنقله والأُبيض ورجاف.

* أرصاد لقياس الارتفاعات.

الاستكشافات والريادات

* أوّل المعلومات المحقّقة عن داخل بلاد العرب.

* ريادة الحجاز والعسير ونجد وتفصيلات طبوغرافية عن الحرمين الشريفين والطرق التي توصل إليهما.

* استكشاف الصحراء التي بشرقي مصر والواحات الغربية وبوادي نوبيا وطرق سواكن وكرسكو وبرانيس.

* استكشاف النيل من ابتداء رأس الخرطوم على النيل الأزرق لغاية ملتقى نهر التومت، ومن ابتداء النيل الأبيض لغاية بحيرة فيكتوريا.

* استكشاف البلاد الواقعة غربي النيلين وشرقيهما والريادة فيها، وفي البلاد التي يرويها نهرا عطبرة وجزيرة الخرطوم وحوض بحر الغزال لحد مكوك.

* استكشاف كردفان ودارفور.

* استكشاف هرر وسواحل الصومالي.

* استكشافات طبوغرافية في السودان الشرقي وفي الجهات الشمالية من بلاد الحبش.

* مجموعات ثمينة تختصُّ ببيان طبائع وأحوال الأمم ودرس لغات عشائر مختلفة وأخلاقهم وقوانينهم وجملة رسوم ومناظر فوتوغرافية ومشاهد متنوعة.

* مباشرة ما يلزم من الإجراءات لتوطيد الأمان في جميع أنحاء القطر وملحقاته حتى يُيَسَّر بذلك مزاولة السياحات الكبرى والريادات المهمّة التي يفتخر بها كثير من الأمم الأوروبية.

إنشاء الخرط ـ الطبوغرافيا

* رسم مجرى النيل كله من البحر الأبيض المتوسط إلى خط الاستواء.

* خرائط لمصر السفلى والعليا وللفيوم.

* خريطة كردفان ودارفور.

* خريطة البلاد التي حول مصوع وشمالي بلاد الحبشة.

* خريطة الإقليم الكائن بين زيلع وهرر.

* رسم طرق متعددة في الأقطار التابعة للحكومة المصرية وفي بلاد الحجاز.

* خرائط مساحية للوجه البحري.

* خرائط لأشهر مدائن القطر المصري والسودان والبحر الأحمر.

* خرائط ببيان مجاري المياه والترع، وخرائط عن الجبال، وخرائط تفصيلية لجملة جهات من القطر المصري.

الجغرافيا الطبيعية ـ التاريخ الطبيعي ـ علم الأقاليم

* أبحاث جيولوجية استمرت من سنة (١٨٢٠) إلى الآن في جميع أنحاء القطر المصري الحقيقي وفي الصحراء الشرقية وكردفان وعلى النيل الأزرق وسواحل البحر الأحمر وخليج عدن وشبه جزيرة سيناء أي الطور وفي بلاد سوريا، والقصد من هذه الأبحاث كلها العثور على ما يفيد الصناعة ويقدم أهاليها.

* أبحاث جيولوجية علمية، وخريطة ببيان المعادن ومجموعات مهمّة.

* مجموعات نباتية منها ما هو محفوظ بالقاهرة، ومنها ما حصل التكرم والتفضُّل بتوزيعه على ديار التحف في الخارج.

* أبحاث جويّة حصلت لأول مرة في أثناء سياحات الاستكشاف.

* إنشاء رصد خانة في القاهرة منذ سنة (١٨٣٢).

* أبحاث جغرافية طبية في إفريقيا وآسيا.

الجغرافيا التاريخية

إن المعاضدة التي نالها المشتغلون بالآثار المصرية والحرية التي تمتعوا بها في أبحاثهم كان لهما الشأن الأكبر في الوقوف على تحقيقات تتعلق بعلم الجغرافيا

القديمة، وإن الرحيل في الصحراء الشرقية والاشتغال بحفر القنال والأبحاث المختصة بالإسكندرية القديمة وبفروع النيل المبارك كلها مما يوجب الفخار والاشتهار من حيث الاعتبار. ثم إن إنشاء دار التحف المصرية القديمة ودار حفظ الآثار العربية قد تكفَّل بجليل المزايا وتقريب الموارد لكلِّ من يشتغل بالأبحاث الجغرافية التاريخية.

الجغرافيا التجارية

* إنشاء مدائن ثلاث، وهي بورسعيد والإسماعيلية والخرطوم، ما خلا مدينة محمد علي؛ فإنها لم تمكث في الوجود إلا زمنًا يسيرًا.

* أعمال عظيمة في ميناء الإسكندرية والسويس[1].

* ترتيب الفنارات والأنوار البحرية على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

* الشاطئ الغربي والجزائر.

* إنشاء شركات الملاحة لتسيير السفائن بين البحرين.

* إنشاء السكك الحديدية في الوجه البحري والوجه القبلي وإقليم الفيوم.

* درس ما يلزم لإنشاء الخطوط الحديدية في السودان وفروع منها في النوبة.

* ترتيب البوسطه والتلغراف بين مصر والسودان.

* إنشاء المنازل لأجل السائحين والتجار في بلاد السودان.

* إدخال زراعة القطن وقصب السكر، وقد ترتَّب عليها تغيير مهمٌّ وتعديل عظيم في حالة البلاد من حيث تدبير الثروة والاقتصاد.

---

(١) انظر الملحق الأول لهذا الكتاب.

* حفر جملة ترع اتَّسع بها مسطَّح (زمام) الأراضي القابلة للزراعة.

* إنشاء مصلحة إحصاء ونشر مصنفات جليلة تختصُّ بالإحصاء والاشتراك في جملة مؤتمرات دولية علمية.

* صكّ نقود مصرية جديدة.

حُرِّر في القاهرة
بتاريخ ٣ يوليو سنة ١٨٨٩
الدكتور
فريدريك بنولا

[تم الكتاب]

الملحقات

الملحق الأول[1]

خلاصة تاريخية عن الأعمال التي تمَّت منذ سنة (١٨١٠) في ميناء الإسكندرية وفي ميناء السويس لأجل رواج التجارة وتسهيل الملاحة:

*** ميناء الإسكندرية**

كانت السفائن التجارية الأوروبية لا يتسنَّى لها الدخول في الميناء الغربية بمدينة الإسكندرية حتى سنة (١٨١٠) ميلادية، وحينئذ استعملت هذه الميناء لمرسى المراكب التجارية الكبيرة وقامت مقام الميناء الجديدة إذ كانت قليلة العمق والاتِّساع.

ومن ثمة صارت الميناء الغربية مرفأ أصليًّا لثغر الإسكندرية، وفي حدود سنة (١٨٣٠) أقيمت فيها مصلحة عموم الكمارك.

وفي سنة (١٨٥٧) أجريت العمليات التي سنتكلَّم عليها الآن لتسهيل الملاحة فيها.

*** العلامات البحرية**

وضعت العلامات الثابتة على الشعوب المعروفة بالقط والفار جهة البوغاز الكائن في مدخل الميناء.

وفي أثناء ذلك تمَّ وضع ثلاث علامات ثابتة أيضًا في البحر، أحدها في الجهة الغربية من المدخل عند طابية العجمي[2]، والثنتان الأخريان على صخور قائمة بجانب المدخل المعروف باسم بوغاز أبو عكر[3].

---

(١) تفضل صاحب الدولة والإقبال، ومعدن الفضل وموطن الكمال، مصطفى رياض باشا، رئيس مجلس النظّار، فصرح لي بأخذ ما يلزمني من الاستعلامات والإسترشادات من المصالح الأميرية على اختلاف أنواعها، ولذلك تيسَّر لي بفضل الله أن أُلحق هذا الكتاب بفوائد يجب الوقوف عليها. وقد تكرم سعادة موريس باشا مراقب عموم الليمانات والفنارات فأرسل هذه النبذة بالكلام على ميناء الإسكندرية والسويس.

(٢) ويسمى بالإفرنكية طابية المرابط.

(٣) وتسمى بالإفرنكية فرويط.

*** العلامات البرية**

وفي السنة المذكورة أيضًا وضعت ثلاث علامات ثابتة في البر، أحدها في جهة أم قبيه[١] بجوار جهة الكاتا كومبي[٢]، والأخريان في طابية المكس.

والغرض من وضع هذه العلامات بيان الاتجاه الذي يجب على السفن اتباعه عند دخولها إلى الميناء وعند خروجها منها.

ولا يخفى أن هذه الأعمال هي من الأهمية بمكان عظيم، وقد ترتَّب عليها من المزايا والمنافع ما يعترف به الخاص والعام، وقد كان تمامها بمباشرة الموسيو هومي يوزباشي أول بالبحرية الفرنسية الإمبراطورية.

وفي سنة (١٨٤٥) أنشأ جناب الهمام المقدام محمد علي باشا والي الديار المصرية حوضًا من الحجر في الترسانة[٣] للقيام بحاجات البحرية؛ وقد اهتمَّ بإنشائها وتنظيمها ببلاد مصر من سنة (١٨٢٩ إلى سنة ١٨٣٣).

وما زال هذا الحوض مستعملًا إلى أن كانت سنة (١٨٨٥) إذ ثبت أنه لا يفي بحاجات السفن الكبيرة لصغره ولم يُتمكَّن من تمام تجفيفه عند الضرورة. وأما

---

(١) وتسمى بالإفرنكية نوهيره.

(٢) هذا اللفظ إفرنجي وهو المصطلح عليه عند أهل الميناء بالإسكندرية، ومعناه السراديب والعمائر التي تحت الأرض، ويرسم بالإفرنجية هكذا Catatombes. ترجمة هذه الأسماء نفسها، وبعض الكلمات الاصطلاحية الواردة في ضمن هذه النبذة استحصلنا عليها من مصلحة الليمانات والفنارات. اهـ (المترجم).

(٣) هذا اللفظ محرَّف عن الكلمة العربية التي تدل على هذا المعنى، وهي دار الصناعة. وقد ورد اللفظ العربي في كلام ابن الأثير في الجزء الثامن في كلامه على بناء المهدية، وذكره ابن جبير في رحلته هكذا «دار صنعة»، وعبر عنها أبو الفدا بـ «الصناعة» في سياق كلامه على عكّا. ثم نقل الإفرنج هذا اللفظ إلى لغاتهم، فحرَّفه الإسبانيون إلى «دارسنا» و«ترازانا». ويظهر أن الأتراك والتونسيين والمصريين أخذوا عن الكلمة الإسبانية أو الطليانية اللفظ المصطلح عليه عندهم الآن، وهو «ترسانه» و«ترسخانه». فيا للعجب! اهـ (المترجم).

الآن فهو غير مستعمل بالكلية، بل قد بيعت الآلة التي كانت معدّة لتفريغ المياه منه.

*** الأحواض**

وفي سنة (١٨٦٧) أنشئ حوض عوام من الحديد بداخل حوض الترسانة وطول هذا الحوض العوام (٤٦٥) قدمًا، ويتيسَّر أن تدخل فيه أعظم المراكب التي لا يتجاوز مقدار ما تجرُّه من المياه (١٩) قدمًا إنجليزيًّا ولا يزيد وزنها عن (٤٠٠٠) طونولاته.

وهذا الحوض العوام مستعمل على الدوام، ومنذ سنة (١٨٧٩) جعل تحت إدارة مصلحة وابورات البوسطه الخديوية، وهو معدٌّ لخدمة السفائن متى لم يكن به مراكب للحكومة المصرية تحت التعمير.

وكذلك ورش ومعامل المصلحة المذكورة فإنها تقوم بخدمة المراكب من جميع أنواع التعمير سواء بالحديد أو الخشب.

*** شمندورات ـ علامات**[1]

في سنة (١٨٨٧) وضعت شمندورات ـ علامات كبيرة في كل من ضفَّتي مدخل البوغاز، وكان ذلك تحت مباشرة حضرة كيلوب باشا.

---

(١) الشمندورة: قطعة ضخمة من الخشب أو من الفلين توضع في بعض المواضع بالبحر للدلالة على الصخور وعلى الأماكن التي يصعب العبور منها، أو قد تكون عبارة عن برميل يطفو على وجه الماء. وهي دائمًا مثبَّتة في قاع البحر بحبل مرتبط بالحرة، أي هلب أو بثقل كاف، وتكون عائمة على سطح الماء بالقرب من الشطوط. وهو لفظ مصطلح عليه عند أهل البحر، ولا أعلم كيف اشتقاقه، ولا من أين مأخذه.

والفرق بين مطلق الشمندور، وما يسمونه بـ «الشمندور بالعلامة» أن الثانية يوضع عليها نور بالليل لإرشاد المراكب في سيرها. اهـ. (المترجم).

أما الشمندورة الموضوعة في الغرب فليست موجودة الآن، فقد انتزعتها الزعازع وقذفت بها القواصف في سنة (١٨٧٩).

*** جسر البريزلام[١] ـ الأرصفة**

لما دار دولاب التجارة بمصر وكثرت الملاحة التجارية منذ سنة (١٨٥٠) تقدَّم كثير من القومبانيات فيما بين سنتي (١٨٦٢ و١٨٦٨) إلى الحكومة المصرية بطلب فتح مداخل الميناء وترتيب المرسى فيها على وجهٍ تكثر به الطمأنينة والأمن على المراكب الراسية بها، وبناء أرصفة تقف بجانبها السفائن لشحن وتفريغ البضائع في البر مباشرة، أي بدون احتياج إلى استعمال المواعين[٢].

على أن الحكومة المصرية لم تسمح بامتياز إنجاز هذه الأعمال إلا في سنة (١٨٦٨) للموسيو جرنفليد وشركاه من رعايا دولة الإنجليز.

وقد قُدِّرت قيمة هذه الأعمال في المقايسة التي قدمتها القومبانية بمبلغ (١٥٠٠٠٠٠) مليون ونصف مليون من الجنيهات المصرية لإتمام الأعمال الآتية:

أوّلًا: بناء جسر بريزلام يبلغ طوله (٢٣٤٠) مترًا يبتدئ من رأس التين ويمتد بانحناء نحو الجنوب الغربي الغربي والجنوب الغربي ثلث غربي.

---

(١) البريزلام لفظ فرنسي اصطلح عليه أهل البحر ويرسم بالفرنسية هكذا Brase–lames، وهو عبارة عن جسر من أحجار وصخور يرمى بها أمام الميناء لتأطيم الأمواج، أي لتكسيرها على بعضها. قال في الصحاح: تأطم السَّيل إذا ارتفعت أمواجه فتكسَّر بعضها على بعض. ويمكن أن يعبَّر عنه في العربية موطم الأمواج أو كاسرها أو مانعها أو دافعها. اهـ. (المترجم).

(٢) المواعين: نوع من السفن يستعمل منذ الأتراك وفي مصر أيضًا، وقد نقلها الفرنسيون إلى لغتهم من العربية فقالوا Mahonne، وهي سفن كثيرة بلا شراع في العادة معدَّة لنقل البضائع في الميناء. اهـ. (المترجم).

ثانيًا: بناء مولص [1] يبتدئ من رصيف محطة القباري إلى حوض الترسانة، ويكون طوله (١٠٢٠) مترًا.

ثالثًا: بناء أرصفة تبتدئ من رأس المولص وتنتهي عند الحوض المذكور.

رابعًا: تطهير الميناء بالكراكات لكي يسهل على المراكب البخارية الكبيرة التراكي [2] بجانب الأرصفة مباشرة.

وكان الشروع في هذه الأعمال في عام (١٨٧٠) وقد استوجبت مصاريف باهظة في الابتداء لأجل أخذ ميزانية متسع عظيم من الأراضي الصخرية كانت بجانب المكس (على مسافة أربعة أميال غربي الإسكندرية) وذلك للتمكُّن من اصطناع (٣٦٠٠٠) حجر صناعي في تلك الجهة؛ فإن هذه الكتل الجسيمة مما يلزم لإقامة جسر البريزلام. وقد استوجب نقل هذه الأحجار خارج الميناء (أي بالبحر العالي) إلى محل وضعها مصروفًا جسيمًا ونفقات باهظة لمشتري المهمات والأدوات العوّامة.

وثقل كل حجر صناعي يبلغ (٢٠) طونولاته ومسطَّحه (١٠) أمتار مكعبة. ولعدم وجود أرض يمكن إقامة الأرصفة وملحقاتها عليها؛ فقد دعت الحال إلى ردم جزء من البحر على مسافة (٢٨) هيكتارًا تقريبًا. وقد تسنَّى للمقاولين نوال هذه النتيجة بما استعملوه من الأحجار والدبش والأتربة التي استخرجوها من جهة المكس. وقد التزموا أيضًا بإنشاء سكة حديدية أقاموا لها قنطرة على ترعة المحمودية، وذلك لأجل نقل الأدوات والمهمات.

---

(١) المولص: جسر مبني من الحجر المرصوص بكيفية منتظمة لصدِّ الموج عن الميناء، ويتصل بالأرض وبه تتحدد الميناء، وهو لفظ لاتيني. اهـ. (المترجم).

(٢) التراكي: لفظ مصطلح عليه عند البحارة، ويعنون به اقتراب السفينة من الشاطئ بحيث يحفّ جانبها البر أو الرصيف، وتكون مماسّة له بقدر الإمكان لإجراء الشحن والتفريغ أو غير ذلك. اهـ. (المترجم).

*** جسر البريزلام**

كان البدء في الأعمال الخاصة بهذا الجسر في شهر مايو سنة (١٨٧١) وكان ختامها في ديسمبر سنة (١٨٧٣). وفي أثناء ذلك الزمن وضعت القومبانية (٢٥٧٣٢) حجرًا صناعيًّا.

وقد وضعت هذه الأحجار على حافتي الجسر فقط، أي لتكوين جانبيه الملاصقين لأمواج البحر. أما المسافة الكائنة فيما بينهما أي الجسر نفسه وكذلك الجانب الموصل للمدينة فقد صار بنيانهما بالأحجار الطبيعية، وبلغت كمية الأحجار اللازمة لذلك (٦٤٦٦٧) مترًا مكعَّبًا من الأحجار الجسيمة و(٤٣٣٥٤) مترًا مكعبًا من الأحجار الصغيرة، وكل ذلك صار استخراجه من مقالع المكس.

وفيما بين سنتي (١٨٧٦ و١٨٨١) اضطر الملتزمون لإضافة (٦٠٠) حجر صناعي على هذا الجسر، فبلغ مجموع النفقات التي صرفت لاصطناع الأحجار الصناعية البالغ عددها (٢٦٣٣٢) كتلة وتكاليف وضعها في مواضعها ما يقرب من (٥٠٠٠٠٠) جنيه إنجليزي.

ويمتدُّ جسر البريزلام على مسافة (٢٨٨٨) مترًا، منها (٥٧٣)، تبتدئ من رأس التين وتتَّجه إلى جهة الجنوب الغربي الغربي، ومنها (٢١٥) بانحناء، ومنها (١٧٠٠) تمتدُّ في اتجاه قبلي غربي نصف غربي. وقد بقي محل لعبور السفائن الشراعية بين طرف جسر البريزلام وآخر نقطة من رأس التين.

واعلم أن نسبة ميل الجسر المذكور من جهة البحر هي كنسبة $\frac{1}{2}$ إلى (١) ومن جهة المدينة كنسبة $\frac{٢}{٥}$ إلى (١). ويبلغ ارتفاع قمة الجسر عن قاعدته (٨) أمتار و(٨٧) سم وعلى مستوى سطح البر (٦) أمتار تقريبًا.

وقد وضعت مصلحة الميناء من سنة (١٨٨١) إلى سنة (١٨٨٩) أحجارًا صناعية في المكس بلغ عددها (٦٨٠) كتلة ووضعتها في الجسر المذكور لملافاة ما حصل من التَّلف بسبب الحوادث الجوّية وعدم انتظام الأهوية.

وقد قدَّروا الآن أنه يلزم (١٠٠) حجر صناعي في كل عام لصيانة الجسر على ما يرام. وقد أقيم فنار صغير في آخر الجسر في الاتجاه الجنوبي الجنوبي الشرقي.

*** المولص والأرصفة**

تمّ إنشاء المولص والأرصفة في أوائل عام (١٨٨٠). وقد بلغت تكاليف هذه الأعمال وجسر البريزلام ما يوازي (٢٥٤٢٠٠٠) جنيه إنجليزي.

*** المولص**

بعد أن شُرع في إنجاز المولص بزمن قليل تقرر تعديل اتجاهه، فبدلًا من أن يكون اتجاهه من محطة القباري إلى حوض الترسانة ـ كما تقرر بالمقايسة الابتدائية ـ؛ حصل العزم بأن يكون سيره من المحطة المذكورة إلى فنار رأس التين، بشرط أن يكون له فرع يتَّجه إلى الترسانة.

ويبلغ طول المولص (١١٤٠٠) متر في الجهة الجنوبية الغربية و(٩٧٠٠) متر في الجهة الشمالية الشرقية ومتوسط عرضه (١٣٠) قدمًا.

*** فروع المولص**

يبلغ طول الفرع المتصل بالترسانة (٧٦٠) قدمًا وعرضه (٢٠٠) قدم.

وفي مبدأ الأعمال كان يوجد مولص ضيق في الجهة الجنوبية من مصب ترعة المحمودية يبلغ طوله (٨٠٠) قدم، ولكنهم وسَّعوا عرضه حتى أبلغوه (٣٠٠) قدم، فصار بذلك فرعًا للأرصفة موازيًا لفرع المولص وبعيدًا عنه بمسافة (٢٧٠) مترًا في الجهة الشرقية.

* الأرصفة التي في جنوبي مدخل التراكي

إن ترعة المحمودية تفصل أرصفة الميناء عن بعضها وتجعلها عبارة عن قسمين تضمهما قنطرة متحركة قائمة على الترعة المذكورة، وهذه القنطرة تفتح في أوقات معينة لكي يتيسَّر لمراكب النيل أن تنزل إلى البحر. بلغ طول الأرصفة في جنوبي الترعة بما فيها المولص وفروعه (٣٠٠٠) متر تقريبًا.

وتشتمل المباني التي في جهة الجنوب من الأرصفة على خمسة أساكل «أرصفة عادية» من الحديد، يبلغ طول الواحد منها من (١٤٠) إلى (١٩٠) مترًا مربعًا. وهي مستندة على أعمدة من الحديد ومردومة بالنقارة والحجر الخراسان. وقد بنيت أساساتها على صخور كائنة تحت مستوى سطح البحر بمسافة (٧٠) قدمًا.

ولهذه الأساكل والبراطيم «سقايل من الخشب» المتنقلة، التي أنشأتها مصلحة الميناء، فضل عظيم في تسهيل الأعمال؛ إذ يمكن بواسطتها أن تباشر (١٥) سفينة بخارية من الطراز الأول عمليات الشحن والتفريغ في آن واحد وتكون كلُّها راسية على البر من غير أن تحتاج للاستعانة بمراكب أخرى من أي نوع.

* الأرصفة التي في شمالي مدخل التراكي

يبلغ طول الأرصفة التي بجهة الشمال (١٦٥٠) مترًا. وتشتمل هذه الأرصفة على أسكلة «رصيف عادي» طولها (١٥٠) قدمًا، أنشئت مثل الأساكل التي في الجنوب تمامًا.

وبواسطة هذه الأساكل وجملة براطيم «سقايل من خشب» أقامتها مصلحة الميناء يتيسَّر لسبعة مراكب بخارية من الطبقة الأولى والثانية ولمركبين شراعيين أن يتراكوا مع الأرصفة مباشرة.

وهناك أيضًا أسكلتان من الخشب طول كل منهما (٦٠٠) قدم معدّتان لخدمة المواعين والمراكب الشراعية الصغيرة المصرية. وكذلك يوجد أسكلة ثالثة من الخشب طولها (١٥٠) مترًا ومعدّة لتراكي القوارب.

وهذه الأساكل الثلاثة موضوعة بحيث لا يؤثر عليها هيجان البحر ولا يصيبها بأدنى ضرر. وقد أعدَّت مواضع مخصوصة على الأرصفة لتراكي بواخر قومبانيات الملاحة التي ترغب ذلك في نظير دفع مبلغ سنوي برسم الاشتراك.

وقد استأجرت قومبانية الميساجيري ماريتيم واللويد النمساوي وپاپايني وشركاه وليلاند وشركاه وموس وشركاه من تلك المواضع بقدر حاجتها.

وقد وضعت على طول الأرصفة من جهة البحر (١٥٠) شمعة على شكل مدفع للاستقبال (أي ربط المراكب) وكل واحدة منها بعيدة عن الأخرى بمسافة (٥٠) قدمًا.

*** السكة الحديدية ـ الكمرك ـ المغازة «المظلة».**

*** أقفال الأرصفة ـ التبليط ـ التنوير.**

إن الخطوط الحديدية تمتدُّ على الأرصفة بمقدار (٧) أميال ونصف وتوصل بين جميع أجزاء الأرصفة وبين محطة البضاعة ثم تتجه إلى داخل القطر.

ومن سنة (١٨٨٣) إلى سنة (١٨٨٥) أنشئت دار على الأرصفة لإقامة مصلحة عموم الكمارك وهذه الدار مبنية من الحجر ولها طبقتان وتشغل مسطحًا من الأرض طوله (٣٥٠) قدمًا. وفي سنة (١٨٨٥) فتحت هذه الدار للتجارة وأعمالها.

ثم إن الأرصفة محاطة بسور من الخشب ارتفاعه (٨) أقدام وفيه ست بوّابات كبيرة توصل إلى الشوارع المهمّة وإلى مراكز التجارة المعتبرة. والأرصفة مبلطة ببلاط نابولي وقد تمَّ معظمها الآن. وقد غطى البلاط الآن قطعة من الأرض مساحتها (١٢) هيكتارًا.

وقد أنشأت الحكومة مغازات مصفحة بالصاج على الأرصفة لأجل تخزين بضائع الصادرات والواردات وتشغل هذه المغازات مسطحًا من الأرض قدره (٢٦٠٠٠) متر مربع.

وزيادة على ذلك فقد تصرَّح لبعض قومبانيات أرباب الصنائع ببناء مخازن ومستودعات لحفظ البضائع على سبيل الأمانة ولحفظ المواد الملتهبة. وتمتدُّ هذه البنايات على مسافة (٨٥٠٠) متر مربع.

أما الأراضي الباقية من غير بناء على الأرصفة فقد صار تأجيرها مخازن للخشب والفحم وغير ذلك. ويبلغ متوسط كمية الفحم المخزون هناك (٣٠٠٠٠٠) طونولاته.

وكانت إضاءة الأرصفة بغاز الاستصباح في عام (١٨٨٥) وهناك ستة وثمانون مصباحًا من طرز سوس وشركاه بلوندرة وباريس، ومن خصوصيات هذا الطرز إمكان تزويد أو تنقيص النور بحسب الإرادة على مقتضى حاجات التجارة، ويمكن أيضًا إضاءة قاع المراكب المتراكية على الرصيف.

والمصابيح المذكورة موضوعة على حافة الأرصفة، ويبعد الواحد منها عن الآخر بمسافة (١٥٠) قدمًا. ثم إن التنوير العادي معدٌّ لإفادة التجارة والملاحة بلا مقابل، وتبلغ تكاليفه على مصلحة الميناء (١٧٠٠) جنيه مصري في السنة.

*** محطة العلامات**

في سنة (١٨٨٢) أقيم على كوم الناضورة (المعروف قديمًا بطابية كافارلّي) محطة مترولوجية وضعت فيها جميع الآلات اللازمة لأعمالها الجوية، وفيها صاري للعلامات يبلغ ارتفاع قمته عن مستوى سطح البحر (١٤٠) قدمًا.

وهناك كرة (بالّون) تسقط كل يوم في تلك المحطة بالانتظام والضبط والإحكام وتعيِّن وقت الظُّهر لخطِّ نصف النهار المارِّ بالهرم الكبير ولخط نصف نهار الإسكندرية.

وفي هذه المحطة رجال للإخبار بقدوم المراكب التي قربت من الميناء حتى صارت مرئية، وهي تتخابر معها عن الاقتضاء بواسطة قانون الإشارات الدولي.

*** أسكلة المسافرين**

قد أنشأت مصلحة الميناء بجانب الكمرك القديم أسكلة طولها (١٦٠) مترًا وأعدَّتها لخدمة مراكب الأجرة. وهذه الأسكلة والرصيف الذي بجانبها موضوعان تحت مراقبة بوليس الميناء، وهو مقيم في مكتب كائن بجوارها مباشرة.

*** الميناء**

لما تمَّت الأعمال التي تكلَّمنا عنها في هذه الخلاصة، فصارت ميناء الإسكندرية تشتمل على جميع القسم البحري الكائن بداخل جسر البريزلام في الشمال الشرقي فيما بين فنار الكريك والشمندورة المعروفة باسم أم قبيه.

وتمتدُّ الميناء على مسافة طولها ميلان وتنقسم إلى قسمين غير متساويين، يفصل بينهما المولص الذي سبق لنا الكلام عنه. وبين طرف هذا المولص والدكة الرملية (بنك الرمل) الكائنة في مقابلته قد ترك محلٌّ لعبور السفائن في الدخول والخروج يبلغ عرضه (٢٧٥) مترًا.

واعلم أن الميناء الخارجية تشغل ثلثي مجموع مسطح الميناء كلها. ويُمكَّن المرسَى بها بكلِّ أمان واطمئنان في مسطح من البحر قدره (١٨٥) هيكتار وعمقه من (٥) إلى (١٠) قامات، ولا يدخل في ذلك الجزء المخصص لعبور السفائن. وكذلك الميناء الداخلية؛ فإن المرسى بها أمين في مسطح قدره (٨٥) هيكتارًا وعمقه من أربع قامات ونصف إلى ست قامات، ولا يدخل في ذلك الجزء المعدِّ لمرسى البوارج الحربية.

*** مداخل الميناء**

إن الحكومة قد صرفت الآن عنايتها ووجهت همَّتها إلى النظر في مشروع تتميم أعمال الميناء الذي من مقتضاه فتح مدخل البوغاز الكائن في أول الميناء، والقصد من ذلك تحسين هذا المدخل بحيث يتيسَّر للمراكب الجسيمة التجارية أن تدخل الميناء على خط مستقيم وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار. ولنا العشم الأكيد والوثوق بأن هذا المشروع المهم سيتم إنجازه عمّا قريب إن شاء الله تعالى.

***ميناء السويس**

من سنة (١٨٤٢) ميلادية ترتَّبت طريقة نقل البضائع من الإسكندرية إلى السويس على وفق النظام المعروف بنظام المرور أو التصدير (الترنزيت)، فانبنى على ذلك توسيع نطاق المواصلات بين مصر والهند توسيعًا عظيمًا جدًّا حتى مسَّت الحاجة ودعت الضرورة في سنة (١٨٥٦) لإنشاء مرفأ لائق على البحر الأحمر ليتيسَّر فيه بناء العمائر وإقامة المباني اللازمة للملاحة.

ولذلك أمر المرحوم سعيد باشا والي مصر لينان بك مدير عموم الأشغال العمومية بمباشرة البحث والنظر لمعرفة وجوه الأفضلية والأرجحية بين

مدينتي السويس والقصير من حيث استجماع الفوائد والسهولة لبناء مرفأ يكون فيه حوض للتعمير، وقد أمر حضرة الوالي المشار إليه بذلك لما بسط جناح حمايته ونشر لواء رعايته على قومبانية الملاحة المعروفة بـ«المجيدية» التي كانت شرعت في تسيير البواخر في أوقات منتظمة ومواقيت محدودة على البحر الأحمر.

وبعد ذلك تقرَّر إنشاء الميناء في السويس، إذ رُئي إن وجوه المنافع وطرق السهولة أكثر وأيسر منها في القصير. وبناء على هذا القرار عقدت الحكومة المصرية في سنة (١٨٦٠) صكًّا مع إحدى القومبانيات الإنجليزية لإنشاء حوض حديدي عوّام في السويس. ولكن هذا المشروع بقي على حاله ولم ينفَّذ قط.

على أنه أعاد النظر فيه مرة ثانية في شهر إبريل سنة (١٨٦٢) وعقد صكًّا آخر مع إخوان دوسو وهم تعهَّدوا بأن ينشئوا تحت مناظرة قومبانية المپساجري مارتييم حوضًا للتعمير تقدرت تكاليفه بمبلغ (٨٨٠٠٠٠٠) فرنك.

وإليك أبعاد الحوض المذكور:

أقصى الطول (٤٠٣) أقدام.

العرض عند المدخل (٧٨) قدمًا.

الفرق من العتبة إلى قاع البحر (٤) أقدام و(٥) بوصات فوق الكتل.

العمق عند ارتفاع الماء المعتاد (٢٣) قدمًا.

وفي سنة (١٨٦٦) تمَّت هذه الأعمال وفوق المرام ونجحت غاية النجاح. وما زال الحوض مفيدًا في استعماله منذ إنشائه إلى يومنا هذا. وفي سنة (١٨٧٥) وضع الحوض المذكور تحت إدارة مصلحة وابورات البوسطه الخديوية.

وفي عهد الخديوي السابق إسماعيل باشا أمضيت شروط جديدة في عام (١٨٦٧) مع إخوان دوسو لإنجاز الأعمال المكملة للحوض. وقد تمَّت هذه الأعمال في سنة (١٨٧٤) وهي عبارة عن مرفأين أمر الخديوي بتسمية الأول منهما بميناء إبراهيم تمجيدًا لذكر والده، والثاني بميناء توفيق إعزازًا لمكانة ولده.

والميناء الأولى مخصصة للوازم البحرية الأميرية ويبلغ مسطح المياه التي بها (١٦) هيكتارًا، وكلها في مأمن من الأنواء، ولها أرصفة تمتدُّ على طول (٥٥٨) مترًا. وأما الميناء الثانية فهي معدّة على الخصوص للمراكب التجارية ويبلغ مسطحها (٢٣) هيكتارًا ولها أرصفة طولها جميعًا (١٥٢٨) مترًا.

وكان من الواجب بناء حيطان الأرصفة بحيث يمكن للمراكب المترددة على مرفأ السويس أن ترسو بجانبها. ويوجد في محور المعبر الموصل بين المرفأين مولص مركزي للشحن والتفريغ طوله (٥٥٠) مترًا وعرضه (١٠٠) متر. وقد تقرر أيضًا إنجاز هذه الأعمال بمبلغ (٢٣٣٩٥٥٠٠) فرنك وقد تمَّت في (٤ مايو سنة ١٨٧٣).

أما أعمال ميناء إبراهيم فلم تأت بالفائدة المنتظرة. وذلك لأن أساسات الأرصفة وحيطان السور من جهة الماء قد تصدَّع بنيانها وتقوضت أركانها، وهي الآن تكاد لا تأتي بفائدة ما مع أن المبلغ الذي صرف في سبيل ترميمها جسيم جدًّا. هذا؛ ولكون إصلاحها يستوجب مصاريف باهظة وكلفًا زائدة فلذلك كان الشروع فيه أمرًا متعذرًا.

جدول الملحق الأول

بيان الفنارات المصرية الكائنة على البحر الأبيض المتوسط

أسماء الفنارات	المواقع	العروض الشمالية	العروض الشرقيه	سنة إقامة الفنار
الإسكندرية	برأس أونوستوس أي رأس التين	٣١ ١١ ٤٣	٢٩ ٥١ ٤٠	١٨٤٨
البريزلام	في الطرف الجنوبي الغربي من الجسر	٣١ ١٠ ١٠	٢٩ ٥٠ ٣٠	١٨٧٦
القباري	في طرف المولص	٠٠ ٠٠ ٠٠	٠٠ ٠٠ ٠٠	١٨٧٧
العمايدة	بقرب برج العرب	٣٠ ٥١ ٠٠	٢٩ ١١ ١٠	١٨٧٣
رشيد	عند مصبّ النيل	٣١ ٢٩ ٣٠	٣٠ ١٩ ١٠	١٨٦٨
البرلس	رأس البرلس	٣١ ٣٥ ٢٠	٣١ ٩ ٠٠	١٨٦٨
دمياط	عند مصب النيل	٣١ ٣١ ٤٠	٣٥ ٥١ ٠٠	١٨٦٨
بورسعيد	على ساحل البحر في الغرب من البريزلام	٣١ ١٥ ٤١	٣٢ ١٨ ٤٥	١٨٦٩

بيان الفنارات المصرية الكائنة على البحر الأحمر

أسماء الفنارات	المواقع	العروض الشمالية	العروض الشرقية	سنة إقامة الفنار
فنار السويس الأعلى	على الساحل الشمالي لجون السويس	٢٩ ٥٧ ٢٠	٣٢ ٣٢ ٤٥	١٨٨٠
الكريك	على مصب السويس	٢٩ ٥٧ ٠٠	٣٢ ٣٤ ٢٠	١٨٨٥
زنوبيا العوام	على ميناروك الجديدة	٢٩ ٥٣ ٣٠	٣٢ ٣٢ ٤٥	١٨٥٦
زعفرانه	على رأس زعفرانه	٢٩ ٦ ٣٠	٣٢ ٣٩ ٤٠	١٨٦٠
رأس الغريب	على رأس الغريب	٢٨ ٢٠ ٤٠	٣٣ ٦٠	١٨٧١
الأشرفي	على رصيف الأشرفي وبوغاز جوبال	٢٧ ٤٨ ٠٠	٣٣ ٤٣ ٠	١٨٦٢
شدوان	في جنوبي جزيرة شدوان	٢٧ ٢٦ ٥٣	٣٤ ٢ ٢٢	١٨٨٩
الأخوين	صخور الأخوين الشمالية	٢٦ ١٨ ٥٠	٣٤ ٥٠ ٣٤	١٨٨٣
أبو الكزان (والوس)	على رصيف الكزان	٢٤ ٥٦ ٠٠	٣٥ ٥١ ٠	١٨٦٣

الملحق الثاني

خريطة الوجه البحري التي رسمها محمود بك الفلكي

تعريفات عن كيفية إنشاء الخريطة[١]

أول خريطة عملت للأقطار المصرية هي التي عملها الفرنسيون حين تغلَّبوا عليها في أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة (أعني من سنة ١٢١٣ إلى سنة ١٢١٦ هجرية). لكن المشاق التي حصلت لمهندسيهم وقت التشغيل بمرورهم في بلاد لم يتمَّ انقيادها لهم، واحتياجهم للتخفير عليهم بالعساكر في أثناء الشغل، وعدم معرفتهم بلغتنا لوضع أسماء البلدان في محلاتها. كل ذلك أوجب وقوع الخطأ والغلط الكثير في تلك الخريطة، وما ظهر بعدها من الخرط إلى وقتنا هذا إنما هو منقول منها، فهو مشحون بغلطها وبغلط الناقل أيضًا. ولهذا السبب أمرني خديوي مصرنا حفظه الله بعمل خريطة جديدة، لكن بما أنه لم يكن عندي ذلك الوقت لامساتر جيودوزية ولا تيودوليت مضبوطة لإمكان عمل المثلَّثات اللازمة لربط أجزاء الخريطة بعضها ببعض؛ عدلت عن الطرق الجيودوزية، واستعملت الطرق الفلكية المحضة، فعيّنت أطوال وعروض ثلاثين نقطة أو بلدة بواسطة الكرنومترات والسكستان، حيث لم يكن عندي آلة غيره، واعتبرت فيها خط نصف نهار أكبر أهرام الجيزة بعدًا للأطوال، واخترت لهذه الخريطة الانفراد المخروطي بطريقة فلامستيد مُصلحة على المذهب الفرنسي لإزالة ما في ذلك الانفراد من العيوب، فحسبت الأبعاد الرأسية والأبعاد الأفقية عن خط نصف نهار الهرم وعموده للنقط التي عينت أطوالها وعروضها، ثم وضعت بيان

(١) تفضَّل صاحب السعادة إسماعيل باشا الفلكي بإعطائي ترجمة هذه العبارة الموجودة على خريطة محمود بك الفلكي، المكوَّنة من أربع صحائف، وهي أوّل ترجمة أعطيت لأحد.

النقط على الأصل بواسطة أبعادها المحسوبة لتكون هي النقط الثوابت التي بواسطتها يتيسَّر ربط الأجزاء التفصيلية بعضها ببعض، ويتم تحقيقها وتشكل بها الخريطة العمومية بالضبط الكافي.

وقد أخذت جميع التفاصيل بواسطة البلانشيطة بالسير على جسور البحر والترع، وعينت مواقع البلاد والكفور ونجوعها بالتقاطع، ولم يشتغل فيها غير المهندسين المعينين معي لذلك. ولتمام الانتفاع بها ومعرفة أطوال وعروض جميع بلاد وكفور الوجه البحري منها بالسهولة كما هي العادة في خرط الممالك حسبت خطوط انفراد دوائر الأطوال والعروض من عشرة دقائق إلى عشرة دقائق، ورسمتها عليها، ورقمت على طرفي كل منها عدد درجه ودقائقه، مبتدئًا من خط نصف نهار الهرم الأكبر للجيزة للأطوال، ومن خط الاستواء للعروض على حسب العادة، ورقمت أيضًا على أضلاع المستطيل المحيط بالخريطة أرقام الخطوط المستقيمة الموهومة عليها بالتوازي لخط نصف نهار الهرم وللخط العمودي عليه مبتدئًا منهما من عشرين كيلومتر إلى عشرين كيلومتر، والكيلومتر هو ألف متر.

وأجزاء هذه الخريطة وإن كان قد تمَّ شغلها من الطبيعة من مدة جملة سنوات، إلا أن الأشغال العمومية الجسيمة التي جدَّدها الخديوي بعد تمام رسم الخريطة، كالسكك الحديدية، والترع والجسور، وكذا الإصلاحات الكبيرة التي تغيَّرت بها صورة معظم الوجه البحري، كالأراضي المتسعة التي كانت بورًا وبركًا، ثم صارت بهمَّته العالية أراضي مزارع مملوءة بالعمائر؛ أدَّتني إلى أن أنتظر تمام انتهائها لأجل أن أضعها على الخريطة. ولذلك امتدَّ تحقيق تلك الخريطة وتمامها إلى سنة (١٢٨٧هـ)، فهي مبيِّنة للحالة التي عليها الأقاليم البحرية في تلك السنة.

محمود بك الفلكي

جدول الملحق الثاني

أطوال وعروض البلاد والنقط التي بنيت الخريطة عليها

أسماء البلاد		أطوال بنسبة الهرم			عروض			ملحوظات
		‘’	‘	°	‘’	‘	°	
أكبر أهرام الجيزة		..	..	..	٠٠	٥٩	٢٩	
القاهرة	شرقي	٨٠	٧	..	٤٧	١	٣٠	مسجد القلعة
بولاق	شرقي	٤٥	٥	..	٠٧	٤	٣٠	محل معمل الغاز (الرصد خانة القديمة)
محطة روبيكي نمرة ٨	شرقي	٢٠	٣٨	..	٣٠	٩	٣٠	على سكة حديد السويس القديمة
عوبيدة نمرة ١٤	شرقي	٣٠	٣	١	٥٧	٨	٣٠	,,,,,,
السويس	شرقي	٠٠	٢٥	١	٥١	٥٧	٢٩	جار لوكندة السويس
مدينة الإسماعيلية	شرقي	٢٦	٧	١	٤٧	٣٥	٣٠	جار بيت الموسيو دولسبس
عتبة الجسر	شرقي	١٣	١٠	١	٢٣	٣٧	٣٠	جار المسجد
بورسعيد	شرقي	٥٢	٩	١	٥٢	١٥	٣١	جار الفنار
برج الديبة	شرقي	٢١	٢٥	٠	٣٠	٢١	٣١	بالقرب من البحر المالح

المنزلة	شرقي	٥٤	٤٦	٠	٢٨	٩	٣١	على البحر الصغير
التل الكبير	شرقي	٢٠	٣٨	٠	٥٠	٣٣	٣٠	على هويس الترعة
دمياط	شرقي	٠٠	٣٩	٠	٠	٢٥	٣١	على النيل في الجهة القبلية للبلد
المنصورة	شرقي	٥٤	١٣	٠	٥٦	٢	٣١	على النيل
سمنود	شرقي	٢٠	٥	٠	٦	٥٧	٣٠	على النيل
الزقازيق	شرقي	٣٠	٢١	٠	٣٠	٣٥	٣٠	داخل البلد بالقرب من ترعة الوادي
بنها العسل	شرقي	٥٠	١	٠	٤٥	٢٧	٣٠	على النيل جار القنطرة
قليوب	شرقي	١٥	٤	٠	٣٧	١٠	٣٠	جار البلد من الشرق
ميت بره	شرقي	١٠	٤	٠	٣٣	٣٢	٣٠	على النيل
القلعة السعيدية	غربي	٤٠	١	.	٣٠	١١	٣٠	على البر الشرقي من البحر الغربي
نادر	غربي	٤٥	١٧	٠	٣٢	٣٢	٣٠	على البحر
طنطا	غربي	٠٠	٩	٠	٤٠	٤٦	٣٠	بالقرب من المحطة

كفر الزيات	غربي	٣٠	٢٠	٠	٠٠	٤٩	٣٠	على البحر
دسوق	غربي	٤٠	٣٠	٠	٢٠	٧	٣١	على البحر بالقرب للبلد
فوه	غربي	٤٥	٣٥	٠	١	١٢	٣١	على البحر في البلد
رشيد	غربي	٠٠	٤٢	٠	٢٢	٢٤	٣١	على البحر جار القصر
الإسكندرية	غربي	٤٥	١٦	١	٣٩	١١	٣١	رأس التين تجاه حمام الخديوي

الملحق الثالث

البوسطه أو البريد

لقد تعطف صاحب السعادة سابا باشا مدير عموم البوسطه فأطلعني على جملة أوراق مهمّة وآثار جليلة تتعلَّق بالكلام على تأسيس البوسطه المصرية سنة (١٨٦٥)، وبيان كيفية نقل المراسلات والمكاتيب قبل ذلك العهد. ولكن سعادته أخذ على عهدته تأليف كتاب وافٍ في هذا الباب، وهو مهتمٌّ به الآن، فلذلك نقتصر على إيراد البيانات والإرشادات الآتية لإكمال فائدة كتابنا هذا، فنقول:

كانت أعمال البوسطه قبل سنة (١٨٦٥) موكولة إلى عهدة رجل يدعى الموسيو ميراتى، وبعد وفاته إلى حفيده شينى. وتمّ في عهد هذه المصلحة إقامة (١٩) مكتبًا للبوسطه في الإسكندرية عام (١٨٢٠)، وفي مصر عام (١٨٤٣)، وفي العطف ورشيد عام (١٨٥٤) وفي كفر الزيات ودمنهور عام (١٨٥٥)، وفي طنطا وبنها عام (١٨٥٦)... إلخ. وكان لهذه الإدارة امتيازات كثيرة، منها نقل أشيائها على السكة الحديدية بلا مقابل. وكانت حركة هذه المكاتب دائرة على محور الاستقامة والانتظام إزاء المكاتب الأجنبية التي كانت موجودة في كثير من المدائن المصرية.

وأما الأقاليم القبلية والسودانية فقد رتبت الحكومة فيها سعاة لحمل المكاتيب وتوصيل المراسلات منذ سنة (١٨٢٠)، ولم يكن للجمهور حقٌّ في استخدام السعاة لنقل مراسلاته العادية وحمل الدراهم والنقود من جهة إلى أخرى إلا في أيام المغفور له سعيد باشا والي مصر، وكان مقدار الرسم الذي يؤخذ على

الخطاب المرسل من القاهرة إلى الخرطوم سبعة قروش صاغ ونصف، وما كان يصل إلى الخرطوم إلا بعد خمسين يومًا من تاريخ إرساله.

ولما كانت سنة (١٨٦٤) واتسع نطاق التراسل والتخاطب بما ضاق عنه ذرع الحكومة؛ رأت وجوب اشتراء الإدارة الموكولة إلى شينى بالمقاولة. وفي أول يناير سنة (١٨٦٥) ابتدأت إدارة الأعمال تحت مناظرة الحكومة ومباشرتها، وأقامت على رأسها موتزى بك. ولم تلبث هذه الإدارة أن تقدَّمت تقدُّمًا سريعًا وراجت أعمالها رواجًا كثيرًا فأقيمت مكاتب جديدة للبوسطه في الوجه البحري (في القسم الذي كان معروفًا حينئذ بمصر الوسطى)، وعلى سواحل البحر الأحمر (سواكن في عام ١٨٦٧ ومصوع في عام ١٨٦٩)، وزيادة على ذلك فقد أنشئت مكاتب كثيرة للبوسطه المصرية في بلاد الدولة العلية بآسيا وبأوروبا مثل جدة وأزمير في عام (١٨٦٦)، وجاليبولي ومدللي وبيروت عام (١٨٧٠)، وقوله وسلانيك وطرابلس وڤولو وغيرها. وقد أنشئ مكتب مصري للبوسطه في دار الخلافة العظمى (الأستانة) في عام (١٨٦٥). ولما انعقد مؤتمر برن عام (١٨٧٤) تقرَّر به قبول البلاد المصرية في دائرة اتحاد البوسطه العام.

وفي عام (١٨٨٠) اشتركت حكومة مصر في وفاق باريس الذي تقرر به نقل طرود البوسطه بين جميع البلاد الداخلة في ذلك الاتحاد. ومن سنة (١٨٧٥) إلى سنة (١٨٨٨) ألغيت مكاتب البوسطه الأجنبية التي كانت بالديار المصرية، وذلك على إثر وفاقات خصوصية مبرمة مع حكومات أوروبا، ولم يبق من هذه المكاتب سوى الفرنسية بالإسكندرية وبورسعيد، وكذلك ألغيت المكاتب المصرية الموجودة في بلاد الدولة العلية.

وفي أول مايو سنة (١٨٨٩) كان الموجود بمصر من مكاتب البوسطه (١٨٩) ومن محاطها (٢٣٣).

وإليك بيان نتيجة أعمال هذه المصلحة في ختام عام (١٨٨٨):

عدد المكاتبات الأجنبية = (١٣٤٤١٥٠٠).

قيمة حوالات البوسطه = (١٠٤٤٢٢٧٢) جنيهًا مصريًّا.

عدد الطرود = (١٣٠٨١٣).

ولنتكلَّم الآن على ما يختصُّ ببلاد الصعيد والسودان فنقول:

لما امتدَّت السكة الحديد في سنة (١٨٦٧) حتى وصلت إلى المنيا أقيم في هذا البندر مكتب للبوسطه. وفي سنة (١٨٧٣) فتحت مكاتب للبوسطه في أسيوط وسوهاج وجرجا وقنا والأقصر وإسنا وأسوان وكرسكو ووادي حلفا ودنقله وبربر والخرطوم، وكانت المخاطبات تصل إلى عاصمة السودان في ظرف (٢٠) يومًا.

وفي سنة (١٨٧٥) فتح مكتب للبوسطه في كسلا، وفي سنة (١٨٧٧) تمَّ بناءً على طلب غوردون فتح مكاتب أخرى في مسلمية وسنار وكرجوج وفازوغلي وقضارف والأُبيض والفاشر وفاشوده في السودان الغربي، ثم في عام (١٨٨١) أنشئت مكاتب في بربرة وزيلع وهرر.

وكان السعاة قائمين بلوازم البوسطه في الوجه القبلي والسودان لغاية وادي حلفا، وفيما وراء ذلك كان الأمر موكولًا إلى الهجانة، وبعد ذلك بطل استعمال السعاة. ثم امتزجت أعمال البوسطه برًّا وبحرًا (أي على النيل) على خط كرسكو إلى أبوحمد، ومن سواكن إلى بربر، فنالت تقدُّمًا عظيمًا ونجاحًا سريعًا. وفيما وراء ذلك كانت المراسلات تنقل على مراكب تصعد النيل إلى مشرارك وغندكرو، ثم يستلمها الحمّالة فينقلونها من محطة إلى أخرى. وقد أثنى جميع السائحين على أعمال هذه البوسطه وحسن إدارتها في تلك الأقاليم والأصقاع.

ولما كانت سنة (١٨٨٥) ورجعت الحدود والتخوم المصرية عن تقدُّمها إلى القهقرى حتى وقفت عند وادي حلفا؛ صارت أعمال البوسطه المنتظمة القانونية لا تتخطَّى أسوان، وترتَّب نفرٌ من الهجانة لنقل المكاتيب والمراسلات فيما بين هذه المدينة ووادي حلفا.

وبقي مكتب الخرطوم مفتوحًا ومباشرًا أعماله حتى استولَى الثائرون على هذه المدينة فقتلوا مديره المدعو جاكو مولومبروزو. وآخر رسالة تختصُّ بالبوسطه صدّرها هذا المكتب جاءت على وابور بردين كان تاريخها (٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤).

ف. ب.

جدول الملحق الرابع: السكك الحديدية

بيان أطوال الخطوط الحديدية وتاريخ سير الوابورات عليها[1]

المسافات		عدد الأميال الجاري الشغل عليها			الطريق						تاريخ فتح الطريق الحديدية لسير الوابورات عليها	
					الصاعد			النازل				
		ميل	سلسله	يارده	ميل	سلسله	يارده	ميل	سلسله	يارده	الصاعد	النازل
	إلى دمنهور	٧٧	٤٨	..	٣٨	٦٤	..	٣٨	٦٤	..	١٨٥٤	١٨٦٤
	إلى كفر الزيات	٥٣	٣٢	..	٢٦	٥٦	..	٢٦	٥٦	..	١٨٥٤	١٨٦٥
	إلى طنطا	٢٢	١٤	..	١١	٧	..	١١	٧	..	١٨٥٥	١٨٥٩
	إلى بنها	٥٠	٢٨	..	٢٥	١٤	..	٢٥	١٤	..	١٨٥٦	١٨٦٥
	إلى قليوب	٣٨	٦٠	..	١٩	٣٠	..	١٩	٣٠	..	١٨٥٦	١٨٦٦
	إلى القاهرة	١٧	٤٨	..	٨	٦٤	..	٨	٦٤	..	١٨٥٦	١٨٦١
	إلى محلة روح	١٧	١٩	١٢	٨	٥٧	٤	٨	٥٧	٤	١٨٥٧	١٨٧٦
	إلى السويس (الخط القديم)	٩٠	٠٠	..		٥٧٧	٤		٥٧	٤	١٨٥٨	١٨٧٦
	إلى سمنود	٤	٤٩	١٢		٥	٤		٥٧	٤	١٨٥٩	١٨٧٦

(١) إن الأبعاد مبيَّنة بالأميال الإنجليزية التي طول الواحد منها ١٦٠٩ أمتارًا، وبالسلاسل التي مقدار الواحدة منها ٢٠ مترًا، وبالياردات التي طول الياردة منها ٩١ , ٠ من المتر.

	إلى الزقازيق	٤٣	٤١	٨	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٠	١٨٧٠
	إلى ميت بره	٥	٢٢	١٣	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦١	١٨٧٠
	إلى طلخا	١١	٢	٤	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٣	١٨٧٠
	إلى زفته	١٩	٣٢	١٥	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٥	١٨٧٠
	إلى دسوقي	٣٣	٣٦	٢٠	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٥	١٨٧٠
	إلى المنصورة	٨٣	٣	..	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٥	١٨٧٠
قليوب	إلى القناطر الخيرية	٥	٥٠	..	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٥	١٨٧٠
القاهرة	إلى العباسية وخطوط المحاجر	٨	٤٧	..	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٥	١٨٧٠
العباسية	إلى القبة	١	٥٧	..	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٥	١٨٧٠
طنطا	إلى شبين الكوم	١٦	٤٤	٠٨	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٦	١٨٧٠
إنبابه	إلى بولاق التكرور	٤	٢٩	٢٠	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٧	
بولاق التكرور	إلى	٥١	١٦	..	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٧	
الواسطي	إلى المنيا	٩٦	٧١	..	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٧	
الزقازيق	إلى	٤٩	١	٥	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٨	
القباري	إلى المكس	٢	٢٦	٥	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٨	
الإسماعيليه	إلى السويس	٥٦	٧١	١٥	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٨	

الواسطي	إلى الفيوم	٢٣	٤٥	٦	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٨	
أبو كبير	إلى الصالحية	٢١	١٧	١٣	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٩	
طلخا	إلى دمياط	٣٩	٢٧	١٦	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٩	
الفيوم	إلى أبو كساه	١٤	٦٤	١٤	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٦٩	
المنيا	إلى ملوي	٢٨	٧٢	٩	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٧٠	
العباسية	إلى قصر النيل	٣	٥٣	..	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٧٠	
إيتاي البارود	إلى بولاق التكرور	٧٤	٣٨	٩	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٧٢	
ملوي	إلى أسيوط	٥١	٧٨	٢	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٧٤	
قلين	إلى كفر الشيخ	١١	٥٩	٢	٢١	٦٠	١٥	٢١	٦٠	١٥	١٨٧٥	
الباب الجديد بالإسكندرية	إلى سيدي جابر	٦	٣٤	٢	٣	١٧	١	٣	١٧	١	١٨٧٦	
سيدي جابر	إلى الملاحة	٢	٦٧	٥	٣	٦٠	١	٣	١٧	١	١٨٧٦	
سيدي جابر	إلى رشيد	٤٣	٣٤	٨	٣	٦٠	١	٣	١٧	١	١٨٧٦	
القبة	إلى المطرية	١	٦٠	..	٣	٦٠	١	٣	١٧	١	١٨٨٨	,,
شربين	إلى بلقاس	٩	٦٤	..	٣	٦٠	١	٣	١٧	١	١٨٨٩	,,

وذلك عبارة عن (١٩١١) كيلومترًا و(١٠٨) مترًا و(٧٣) سنتيمترًا.

قد ورد لنا هذا الجدول هكذا من الطَّيب الذِّكر المأسوف عليه الموسيو مورى بك رئيس هندسة السكة الحديدية، ولكنّا ينبغي لنا أن نكمله ونضيف إليه ما يأتي:

السكة الحديدية من أسوان إلى الشلال على النيل (الشلال الأول) حصل كمال فيها سنة (١٨٧٤) وزاد الاهتمام به وقت الحرب.

الخط من القاهرة إلى حلوان، وجرى العمل عليه في سنة (١٨٧٩).

الخط من وادي حلفا إلى سراس، وقد نزع الآن ولم يبق له أثر. وهو عبارة عن القسم الذي صار إنجازه من مشروع فاولر، وقد سبق لنا كلام على هذا المشروع؛ فإنه وضع بناءً على أمر الخديوي السابق إسماعيل باشا، ونال تصديقه وإقراره. ومن مقتضى هذا المشروع أن الخط الذي كان في النية إنشاؤه المصروف بسكة حديد السودان يبتدئ بوادي حلفا وينتهي إلى كوة مارًّا على الشاطئ الشرقي للنيل أمام أربع محاط، وهي: سراس وأمبيقول وأكاسكا وعمايرة، ويكون طوله (٢٥٧) كيلومترًا.

وكان من مقتضى المشروع أيضًا أن الخط متى وصل إلى كوة يسير على قنطرة حديدية تمرُّ على النيل وينتهي إلى أمبيقول، بعد أن يمرَّ ثماني محاط، وهي: بندر وحنك ودنقله وتتى والخندق ودنقله العجوز وديبه وأبدوهين، ويقطع مسافة (٣٤٩) كيلومترًا.

وأما الجزء الأخير من الخط فكان في النية جعل مبدئه في أمبيقول ومنتهاه في شندي بعد مروره على صحراء بيوضة، بحيث يكون مجموع طول الخطوط الحديدية من ابتداء وادي حلفا (٧٨٩) كيلومترًا.

وكان في العزم أيضًا إنشاء خمس محطات في الصحراء لتقديم الكميات اللازمة من المياه إلى الوابورات، وتكون في موفوكا كارت والحويجات وأبوحلفا وجبل النوس وأبوكلى. وكان مقدار المصاريف المقررة لذلك (٤٠٠٠٠٠٠) جنيهًا إنجليزيًّا.

وكان من اللازم أيضًا إتمام هذا الخط في الشمال بتوصيله إلى أسوان، وفي الجنوب الشرقي بإيصاله إلى البحر الأحمر عن طريق كسلا ومصوع لما في ذلك الأرجحية.

وقد حصل البدء في إنجاز هذا المشروع، ولكن الحكومة المركزية أعلمت غوردون في سنة (١٨٧٧) بوجوب احتساب تكاليف ذلك الخط على إيرادات السودان. وكان من المتعذر عليه القيام بهذه المصاريف؛ ففسخ الصك المعقود مع قومبانية فاولر، ودفع لها تعويضًا قدره (٣٦٠٠٠) جنيه مصري. ولما انتصب سوق الحرب أعيد العمل في هذا الخط وتم إنشاء سكة طولها (٨٠) كيلومترًا من وادي حلفا إلى عكاشة.

الملحق الخامس

بيان الخرط الطبوغرافية التي رسمتها نظارة الأشغال العمومية[1]

أسماء الخرط	تاريخ إنشائها	مقياسها	أسماء الذين رسموها
الوجه البحري	١٨٧٢	١/٢٠٠٠٠٠	محمود باشا الفلكي
مديرية القليوبية	١٨٧٢	١/١٠٠٠٠٠	محمود باشا الفلكي
مركز محلة منوف	١٨٨٣	١/٤٠٠٠٠	مصلحة التاريع
مدينة المنصورة	١٨٨٥	١/٢٠٠٠	صالح أفندي نظيف
مدينة بنها	١٨٨٦	١/٢٠٠٠	تفتيش الشرق
مدينة الزقازيق	١٨٨٦	١/٢٠٠٠	عبد الله أفندي حسيب
مركز الجعفرية	١٨٨٧	١/٤٠٠٠٠	مصلحة التاريع
مدينة الإسكندرية	١٨٨٧	١/٤٠٠٠	تفتيش الغرب
مدينة طنطا	١٨٨٧	١/٢٠٠٠	محمد أفندي رأفت
مركز شبرا	١٨٨٨	١/٤٠٠٠٠	مصلحة التاريع
مركز جرجا	١٨٨٩	١/١٠٠٠٠٠	مصلحة الري

(١) هذا البيان وارد إلينا من نظارة الأشغال العمومية في شهر إبريل سنة ١٨٨٩.

الملحق السادس

أطوال وعروض المحطات الكائنة على الطريق الذي بين داره (في دارفور) وحفرة النحاس (دار فرتيت) من حساب بوردي باشا في سنة (١٨٧٦)[١]

المحطات	الكواكب المرصودة	العروض شمالي خط الاستواء	الأطوال شرقي جرينتش	ملحوظات
كوبيش	السفينة[1] الشعرى[2] الدب الأكبر	١٠° ٥٥' ٥٨"	٢٥° ٢٩' ٥٧"	رصدان لكلٍّ كوكب
تيمو	السفينة الشعرى السفينة	١٠° ٢٧' ٣٦"	٢٥° ٠١' ٣٥"	رصدان لكلٍّ كوكب
عبور نهر العرب	الشعرى الدب الاكبر	١٠° ١٢' ٤٧"	٢٤° ٥٥' ٥٠"	رصدان لكلٍّ كوكب
المحطة الثانية نهر العرب	السفينة الشعرى	١٠° ٠٣' ٣٩"	٢٤° ٥٣' ٥٠"	رصد واحد لكلٍّ كوكب
جبل دنجو	السفينة الشعرى الدب الأكبر	١٠° ٠٠' ٥٩"	٢٤° ٣٣' ١٤"	رصد واحد لكلٍّ كوكب
حفرة النحاس	السفينة الشعرى الدب الأكبر المشتري	٠٩° ٤٨' ٢٣"	٢٤° ٠٥' ٣٨"	رصد واحد لكلٍّ كوكب

(١) أصل هذا الجدول محفوظ بالجمعية.

الملحق السابع

بيان المؤلَّفات الجغرافية التي صنفها المصريون[1]

تعليمات جغرافية وتاريخية خاصة بمصر: تأليف محمد قدري باشا، مطبوع بمصر سنة ١٨٦٩

التذكرة في تخطيط الكرة: تأليف محمود أفندي عمر الباجوري، طبع بمصر سنة ١٣٠٠، عربي.

التعريفات الشافية لمريد الجغرافيا: تأليف رفاعه بك، طبع بمصر سنة ١٢٥٤، عربي.

الثمرة الوافية في علم الجغرافيا: تأليف مصطفى بك علوي، سنة ١٢٩٠، عربي.

جغرافية مصر: تأليف محمد بك أمين فكري، ومعها نبذة في الكلام على الأقطار السودانية التابعة للحكومة المصرية ملخصة من رسالة سنجر باشا، التي عرَّبها يعقوب بك صبري، ثم خلاصة وجيزة من الجغرافيا المذكورة، طبع بمصر سنة ١٢٩٦.

الدرر الوافية في علم الجغرافيا: تأليف سيد أفندي عزمي، أحد خوجات المدارس الابتدائية، طبع بمصر سنة ١٣٠٣هـ.

الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار: مصحح بمعرفة رفاعه بك، طبع طره سنة ١٢٥٠هـ.

المجموعة الشافية في علم الجغرافيا: تأليف محمد أفندي مختار، طبع بولاق سنة ١٢٨٩.

---

(١) ورد لنا هذا البيان من نظارة المعارف العمومية.

النخبة الوافية في علم الجغرافيا: تأليف يعقوب بك صبري، طبع بمصر سنة ١٢٩٧.

الدراسة الأولية في الجغرافيا الطبيعية: تأليف أحمد أفندي حسن الرشيدي، بمطبعة المعارف سنة ١٢٥٤.

المشكاة السنية في الكرة الأرضية: تأليف عبد الرازق بك.

مختصر الجغرافيا: تأليف محمد أفندي عثمان.

جزء أول جغرافيا: تأليف محمود أفندي رشاد.

(يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة البهية ببولاق مصر المعزّية الفقير إلى الله تعالى محمد الحسيني، أعانه الله على أداء واجبه الكفائي والعيني):

سبحان من رتَّب ملكه على أبدع نظام وأحكم ترتيب، وقسم لذوي الفهوم من دقائق الحكمة أوفر نصيب، ونظم الملك بسطوة الملوك، وساوى في العدل بين المالك والمملوك، نحمده ونشكره، ونؤمن به ولا نكفره، ونصلي ونسلِّم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومحبِّيه وحزبه.

أما بعد:

فلا شكّ في أن إقليم مصر كان قديمًا في جبهة الأرض غرّة، وفي بستانها أبهج زهرة، بما حازه علماؤها من باهر الحكمة، إذ أسَّسوا من أعمالها كل محكمة مهمّة، ورقموا على جدران هياكلهم من غرائب أعمالهم النفائس الجمّة، فتلقّاها عنهم الأذكياء الأوروبيون، وكشفوا رموزهم وأبرزوا سرَّهم المكنون، إلى أن ظهر بدر هذه الحكومة المصرية، وشمس العائلة الفخيمة المحمدية العلوية المرحوم محمد علي باشا الكبير، فبسط يده وتبعه أولاده في إصلاح ما اندثر من أرجائها، ووصل ما انقطع من أنحائها، واستكشاف ما جهل من أبعادها، وتسهيل سلوك ما استوعر من أنجادها، فذلَّل منها الصعاب، وهيَّأ لانتظامها الأسباب، وأعانه الله على ذلك بما ساقه من علماء أوروبا، فبثَّهم في أقاصيها، وهذَّبوا كل أبيٍّ من عواصيها، وبعثوا له من ذلك بسرور الأنباء.

وقد كتب الناس في ذلك كثيرًا من الكتب الجغرافية، فأوضحوا فيها الأعمال التي أنجزتها هذه العائلة الفخيمة العلية، وأبانوا من نواحي مصر كلَّ خفية، وأكثروا في ذلك من الخرط ما يبعد معه أرجاء ذلك الإقليم الغلط.

وممن كتب في ذلك، الفطن النجيب، والدكتور الفهامة اللبيب، فريدريك بنولا بك، السكرتير العام للجمعية الجغرافية الخديوية، فقد ألَّف هذا الكتاب الجليل باللغة الفرنسية، ولما رآه حضرة الوزير الخطير والمشير الكبير، ذو الدولة والإقبال، والعزة والكمال، مصطفى رياض باشا رئيس مجلس النظّار، حفظه الله، تعلقت همَّته العلية بترجمته، فأمر بذلك الفهامة الجليل، والدّرّاكة النبيل، الألمعي الأريب، والسميذعي اللبيب، الثقف اللقن، الجهبذ الفطن، حضرة أحمد أفندي زكي، مترجم مجلس النظّار، ومترجم شرف، وأحد أعضاء الجمعية الجغرافية الخديوية، فتلقَّى حفظه الله الأمر بالقبول، وسار في ترجمته على النهج المعهود فيه والمأمول، وترجمه أحسن ترجمة، وأعرب منه كلَّ كلمة أو جملة معجمة، انتقى له رقيقة، ونظم في عقوده كل ثمينة رشيقة، وسلك في سيره أنهج المسالك، فلا يضل في منهجه كل سالك، مهذب المباني محرّر المعاني، يشرح صدر قارئيه، وتبتهج به نفس رائيه.

ولما تمَّت ترجمته فجاء نسيج وحده، وواسطة عقده، تشتاقه النفوس، ويهشُّ له العبوس، شرع في طبعه بالمطبعة الزاهية الزاهرة، ببولاق مصر القاهرة، فتمَّ طبعه بحمد الله، معجبًا بحسن مثاله، يتيه بلطف شكله على أشكاله، في ظلِّ الحضرة الفخيمة، والعواطف الرحيمة، حضرة المليك الأكرم، والخديوي الأعظم، عزيز الديار المصرية، وحامي حمى حوزتها النيلية، الذي لا يزال بيمن طلعته هنيّ الخير على رعيته، يفيض ويهمي، أفندينا (عباس باشا حلمي) أيَّد الله دولته، وقوَّى شوكته وصولته، مشمولًا هذا الطبع الجليل، والشكل الجميل، بنظر من عليه جميل طبعه، يثني حضرة وكيل المطبعة محمد بك حسني في أوائل صفر الخير سنة (١٣١٠) من هجرة سيد الأنام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه البررة الكرام، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ملحق خرائط
(من إضافات المحقِّق)

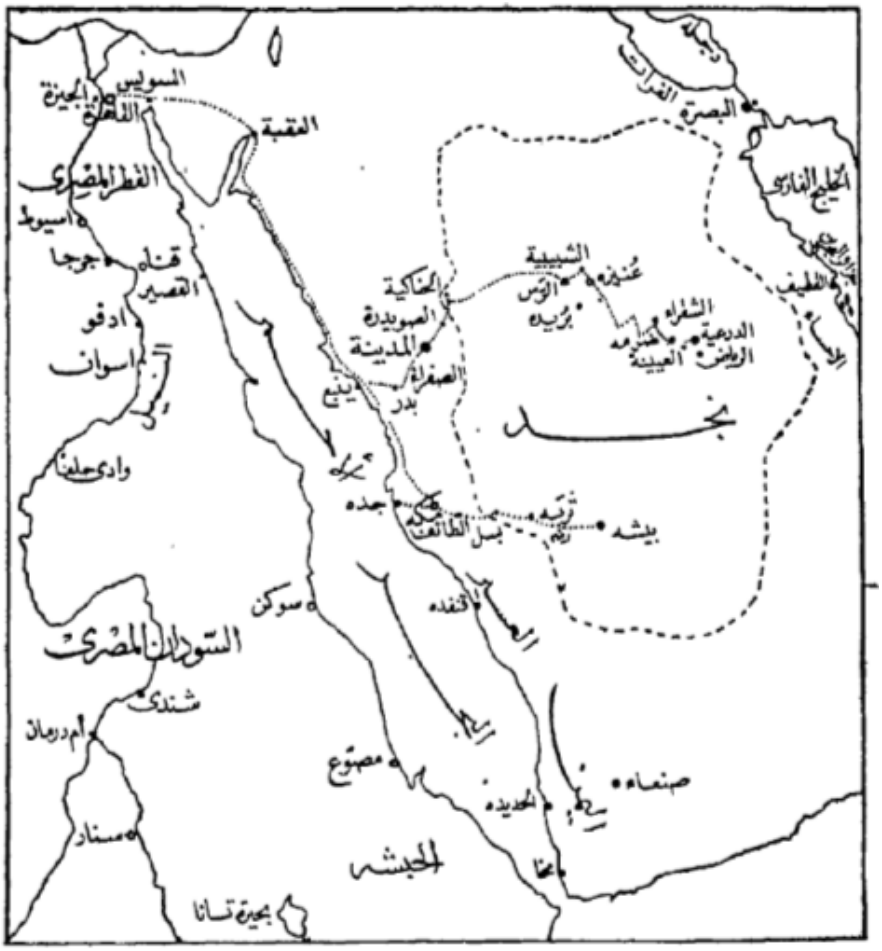

خريطة الحرب الوهابية

غزوات محمد علي في جزيرة العرب[1]

(١) نقلًا عن عبد الرحمن الرافعي (١٩٣٠) عصر محمد علي، ص١٤٥.

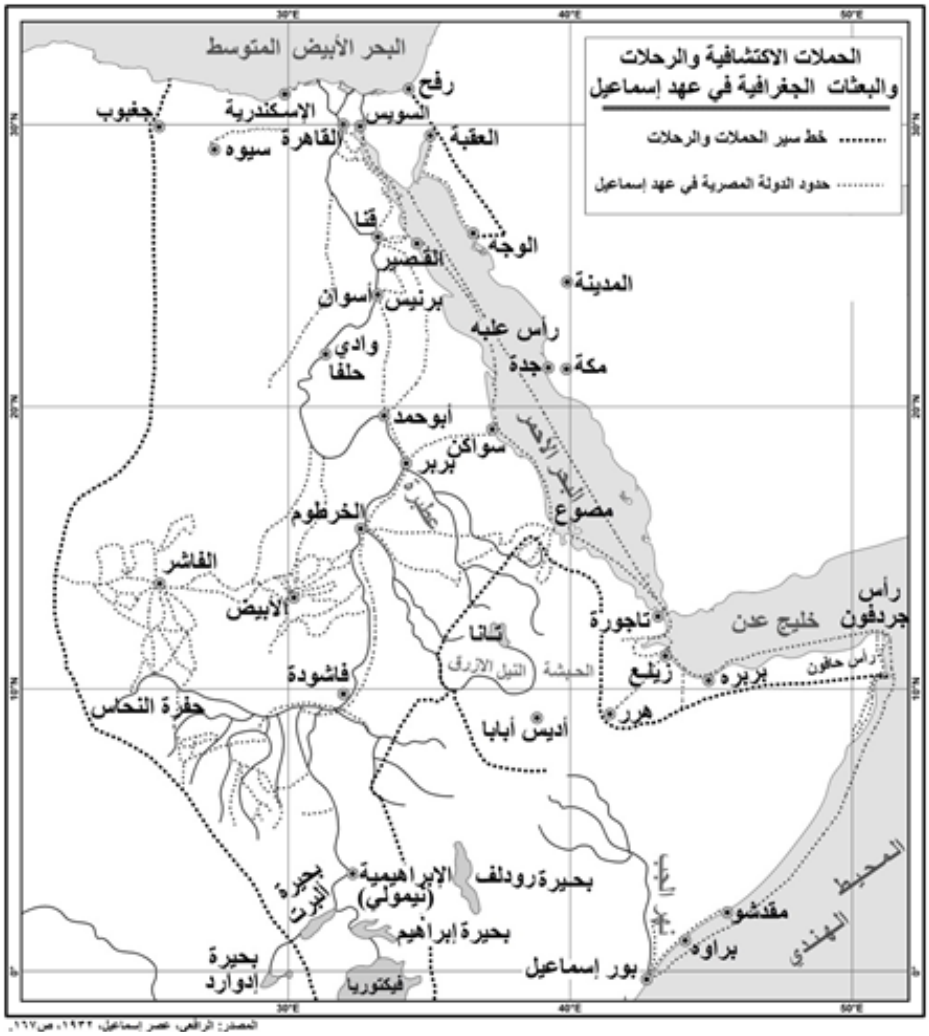

المصدر: الرافعي، عصر إسماعيل، ١٩٣٢، ص١٦٧.

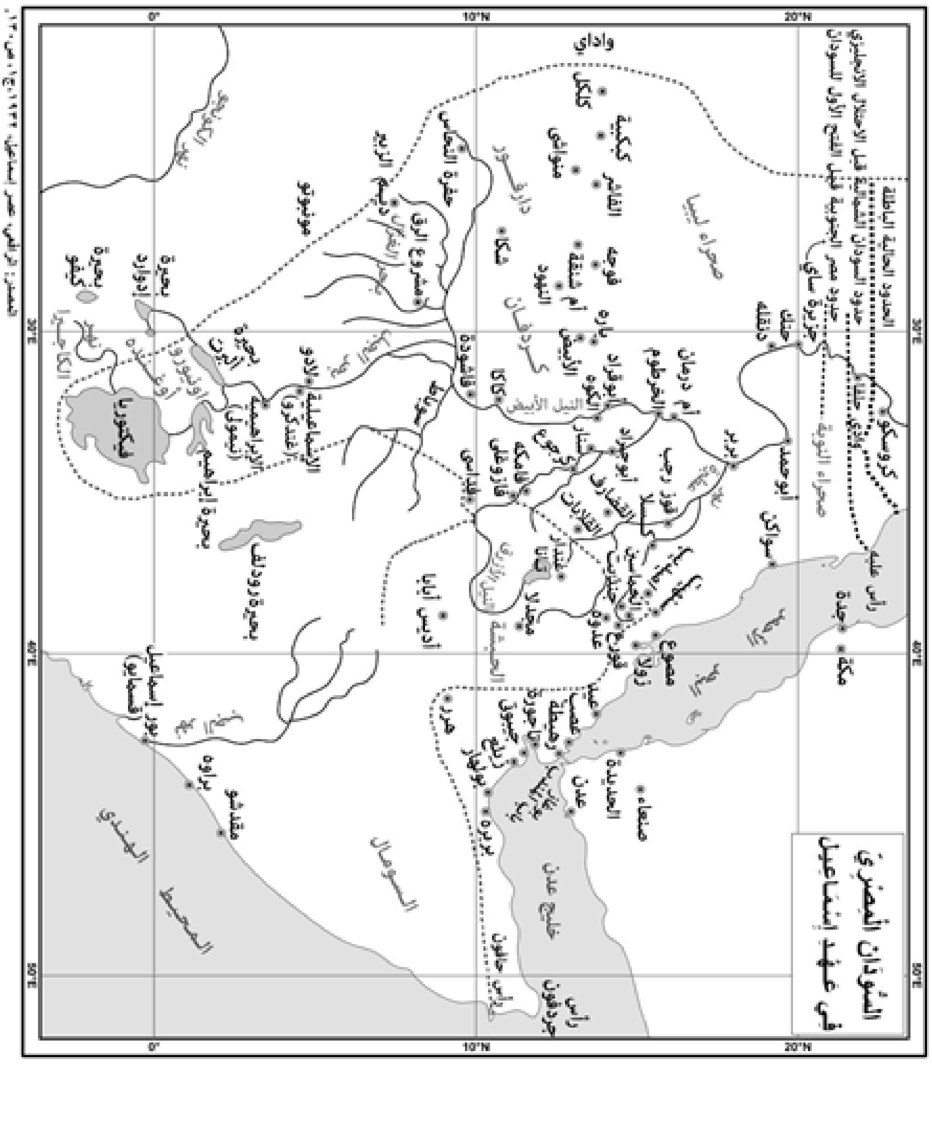
السودان المصري في عهد إسماعيل
صحراء ليبيا
دارفور
كردفان
النيل الأبيض
الخرطوم
كسلا
سواكن
مصوع
زيلع
بربرة
هرر
عدن
صنعاء
الحديدة
جدة
مكة
كروسكو
دنقلة
بربر
الأبيض
الفاشر
خليج عدن
الصومال
مقديشو
براوة
أديس أبابا
بحيرة فكتوريا

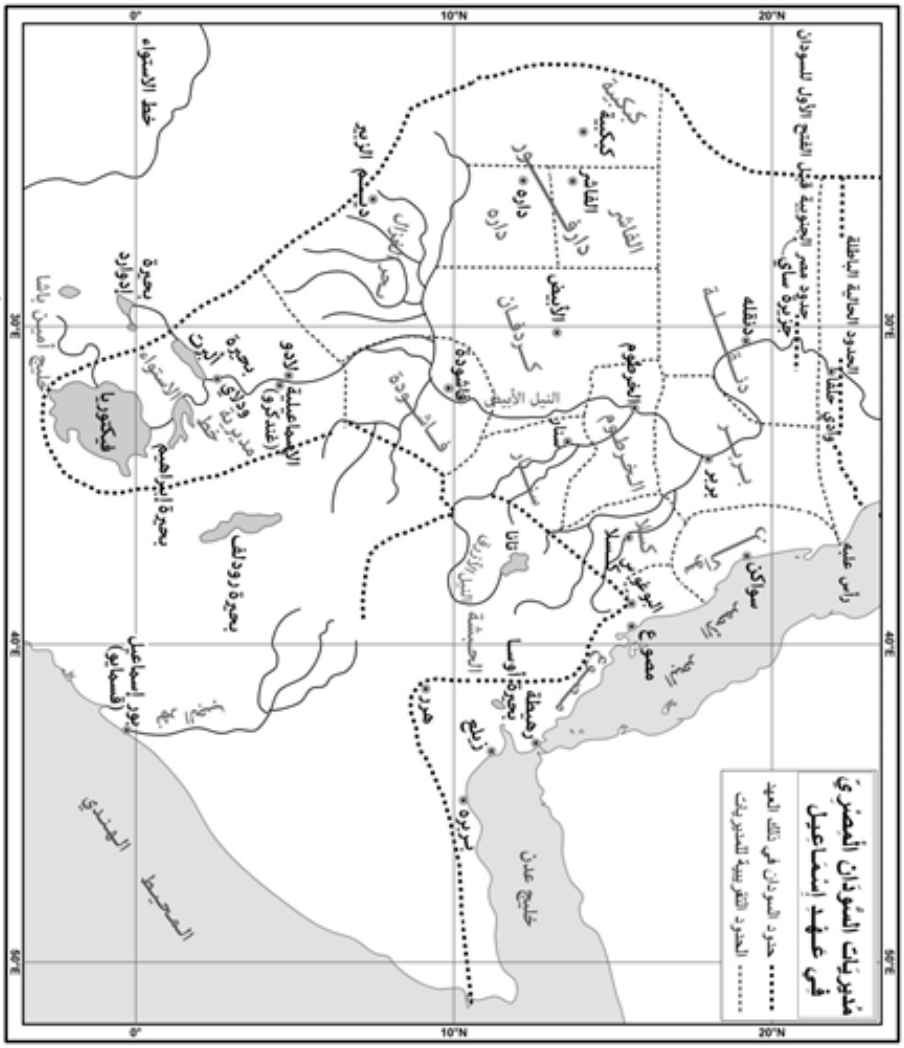

المصدر: الرافعي، عصر إسماعيل، ١٩٣٢، ج١، ص١٥٨.

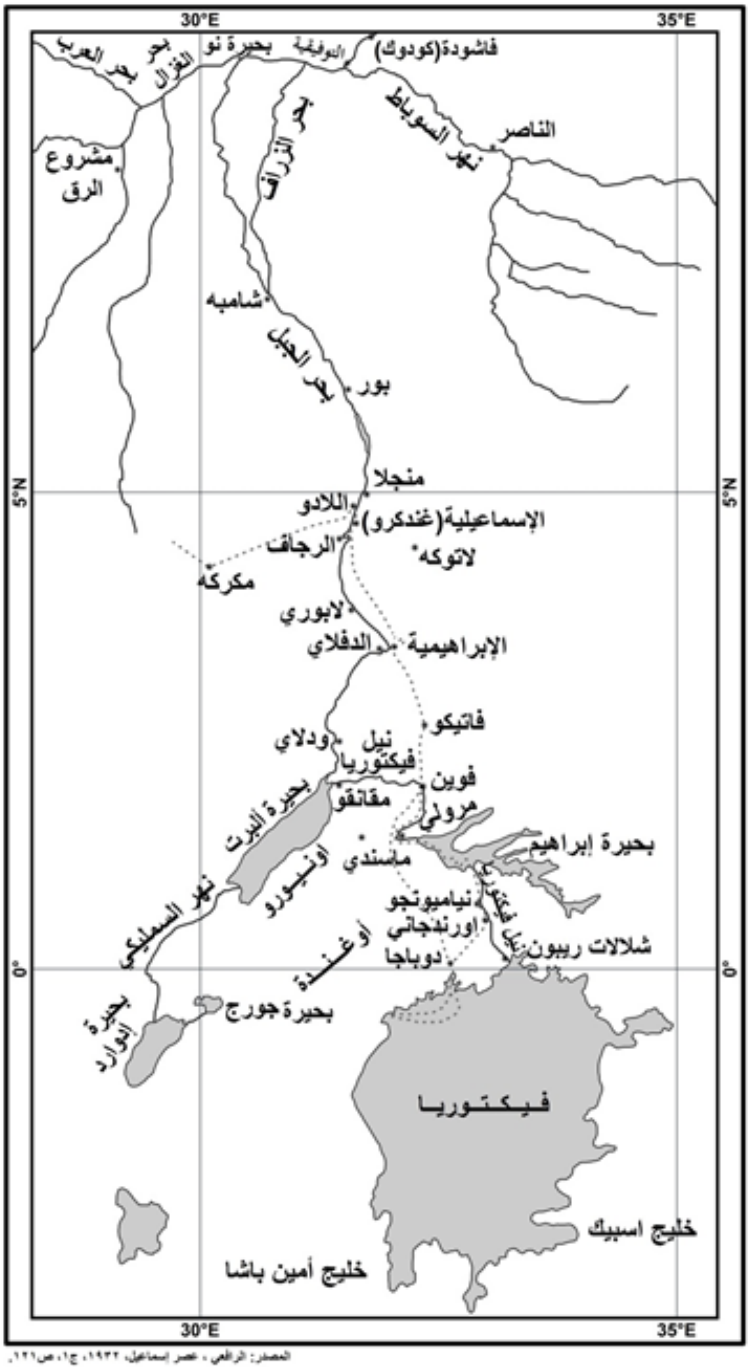

المصدر: الرافعي ، عصر إسماعيل، ١٩٣٢، ج١، ص١٢١.

مديرة خط الاستواء

أهم المعالم الطبوغرافية في السودان

خريطة لمنتصف القرن العشرين

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٩
مقدمة المترجم	٢٩
فاتحة المؤلف	٣١
حكم محمد علي باشا الأكبر	٣٥
غزوات بلاد العرب	٣٥
البحث عن المعادن	٣٧
غزوة سيوة	٤٢
غزوة السودان	٤٣
تأسيس الخرطوم	٥١
استكشافات چيولوچية	٥١
الترع والمدارس والتنظيمات والخرائط	٥٤
تجديد الأبحاث الطبيعية	٥٧

سفر محمد علي إلى السودان ٥٩
تجريدة البحر الأبيض ٦٠
التجارة بين مصر والسودان ٦٥
حكم ابراهيم باشا ٧٠
حكم عباس باشا ٧١
حكم سعيد باشا ٧٥
حكم إسماعيل باشا ٨١
المعارض – الأعمال العمومية ٨١
تشكيل أركان الحرب – الاستكشافات الطبوغرافية ٨٤
إلحاق بعض جهات السودان الشرقي بالديار المصرية ٨٦
سفر السير صامويل بيكر ٨٧
الاستكشافات في كردفان ودارفور ٩١
إنشاء المسافرخانات ٩٧
إفتتاح هرر ٩٨
الكلام على غوردون ١٠١

بيان الأعمال فى مصر ١٠٨
الكلام على حكمدارية غوردون لعموم السودان ١١٠
آخر الإرساليات ١١٢
حكم محمد توفيق باشا ١١٤
السنوات الاولى ١١٤
(الكلام على ما حصل فى هذه الأزمان الأخيرة) ١١٩
خرائط المدن ١٢١
أعمال الري العظيمة وإنشاء الخطوط الحديدية المصمم على إنشائها
أو التي حصل الشروع فيها..... ١٢٤
الخاتمة ١٢٥
الملحقات ١٣١
الملحق الأول: خلاصة تاريخية عن الأعمال التى تمت منذ سنة ١٨١٠
في ميناء الاسكندرية وفي ميناء السويس..... ١٣٣
الملحق الثانى: خريطة الوجه البحرى التى رسمها محمود بك الفلكى ١٤٩
الملحق الثالث: البوسطة أو البريد ١٥٤
الملحق الرابع: السكك الحديدية ١٥٨

الملحق الخامس: بيان الخرط الطبوغرافية التي رسمتها نظارة الاشغال العمومية ١٦٣

الملحق السادس: أطوال وعروض المحطات الكائنة على الطريق بين داره وحفرة النحاس ١٦٥

الملحق السابع: بيان المؤلفات الجغرافية التي صنفها المصريون ١٦٦

ملحق خرائط: (من إضافات المحقق)..... ١٧١

- غزوات محمد علي في جزيرة العرب..... ١٧٣

- الحملات الاكتشافية والرحلات في عهد إسماعيل ١٧٤

- السودان المصري في عهد إسماعيل..... ١٧٥

- مديرات السودان المصري ١٧٦

- مديرة خط الاستواء ١٧٧

- أهم المعالم الطبوغرافية في السودان..... ١٧٨

دار البشير للثقافة والعلوم